الدكتور: علي عبد الأمير صالح

فيسبوك/كتب كتب

الهولندي الطائر



قصص قصيرة

فيسبوك//الكتب. كتب.كتب

الدكتور: علي عبد الأمير صالح

فيسبوك//كتب. كتب كتب

الهولندي الطائر

قصص قصيرة

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

2000

فيسبوك//كتب. كتب كتب

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحـــاد الكـتّـاب الـعرب

البريد الالكتروني: E-mail :unecriv@net.sy
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنانة: ميسم صقور

□□

"أيتها السعادة — مهلا أخبريني إلى أين تطيرين؟"

"إلى القلب العاشق.

"أيها الشباب، ليتك تعود– إلى أين أنت مسرع ولماذا؟"

"إلى القلب العاشق"

"أيتها الشجاعة والقوة– أخبراني أين تسكنان؟"

في القلب العاشق.

"وإلى أين أنتما مسرعان، أيها الحزن والقلق؟"

"إلى القلب العاشق.

رسول حمزاتوف

فيسبوك الكتب كتب كتب

فيسبوك//كتب. كتب. كتب

فيسبوك//الكتب. كتب كتب

براءة

وقع بصره عليها، كانت فوق السلالم، محنية الظهر كالقوس، شعرها مغطى بربطة حريرية زرقاء، فيما تصاعدت سحابة غبار شرعت تغمر المكان، أدارتْ الفتاة رأسها وتبسمتْ ببرود.

-هل تشربين شاياً؟

حملقت في وجهه ورفعت جذعها، حركت أصابعها الطويلة وعاينتْ كفها المحمرة ثم دخلت الغرفة، على مدى لحظات قلائل علا وجهها خجل طفولي وبعدها جلستْ على حافة الأريكة، صبَّ قدحين من الشاي وأخذا يرتشفان بصمت واجم.

كانت ترتدي ثوباً أزرق لاحت خلفه رمانتان طريتان مر فوقهما شريط من الدانتيلا البيضاء. وضعتْ قدح الشاي على حافة الطاولة الصغيرة وحوّمتْ بصرها في أرجاء الغرفة.

-تبدين صغيرة كالبرعم!

على وجهها رقصت ابتسامة عذبة، رفعت إليه عينين واسعتين.

-وأنت أيضاً، تبدو صغيراً مثل عصفور أزغب!

ضحكا معاً. وفي لمح البصر تبادلا النظر بصمت. كان الوقت عصراً وأشعة الشمس تتسلل ناعمةً دافئةً عبر النافذة لترسم مستطيلاً من الضوء فوق الجدار المطلي بدهان رمادي.

قال العصفور:

-هل أنت خجلة؟ اخلعي المنديل ودعيني أرى شعرك!

في عينيها لاح شعور غامض بالحرج، خلعت المنديل وكوّرته بين أصابعها.

قال البرعم:

-هل تحب شعور النساء؟

-بالطبع أحبها، النساء أميرات قلوبنا، وشعورهن تيجان مهداة من قبل الرب!

ضحك البرعم ضحكة قصيرةً، وركز بصره في عيني العصفور.

-هل تتنزه في الليل؟

-أتنزه قليلاً، وأجلس في المقهى قرب التلفاز.

أرخت ذراعها فوق حافة الأريكة، جثم صمت ثقيل مطبق بكثافة، وبعد دقيقتين قالت:

-هل لك صديقات؟

أجاب العصفور:

-لا.

-هل تشعر بحاجتك إليهن ولو في بعض الأوقات مثلاً؟

-نعم، في أيام الصيف يجتاحني حزن أصفر صحراوي.

هزت رأسها ونظرت عبر النافذة. قامت لتخطو فوق البلاط ثم استدارت على عقبيها وأردفت:

-وأنا أيضاً، ليس لي صديقة أحدثها.. والدتي ترغمني أحياناً على الذهاب معها.

-إلى أين تذهب والدتك؟

-لا أعلم، عند الغسق تعود مجهدة تماماً.

-ماذا؟!

-نعم، عندما تعود يكون شعرها منكوثاً.

نظرت في زجاج النافذة، أحنت جذعها قليلاً وسوّت شعرها بأصابعها. وقف العصفور متكئاً على الجدار وتأملها ملياً. كان وجهه متقلّصاً وفي عينيه لاح حزن مشوب بالبراءة. اقترب منها ولمست كفه كفها الباردة ونظر في عينيها بحنو.

-هل ستأتين في الأحد القادم؟

أجاب البرعم:

-سآتي.

تبسمتْ برقة وفتح لها الباب، كانت أصابعها الغضة في كفه المخشوشنة وفي عينيها أسى يبدو واضحاً تماماً، أرسلت بصرها إلى السلم ورأت المقشة التي كانت بيدها قبل قليل، وفيما كانا واقفين في مستطيل الباب، أطل شاب نصف عار من الغرفة المجاورة، غمزها بحاجبيه وابتسم بخبث، وضعت الفتاة سبابتها اليمنى على شفتها السفلى وراحت تنظر بحيرة وذهول.

الكوت 1975

فيسبوك//الكتب. كتب كتب

العش

من خزانة الملابس اختارت ثوباً أخضر، ووقفت أمام المرآة المشروخة فلمحت فتاة ذات بشرة قمحية، عارية الذراعين والكتفين، ضربت بكعب حذائها الآجرة المربعة واستدارت فواجهت فرساً بيضاء تركض خبباً عبر مرج أخضر.

بخطوات ثقيلة دنت منها وجعلت تنظر إليها عن كثب، مررت أصابعها الطويلة على ظهر الفرس. فجأة دونما شعور أغمضت عينيها وبدت على مدى لحظات قلائل كالنائمة، عادت خطوتين إلى الوراء ومسحت بأصابعها فوق زندها العاري. شرعت تحدق بحنو في الفرس الجريحة. كانت الفرس هزيلة بوضوح وأضلاع صدرها بارزة تماماً، فيما كانت قائمتها الأمامية تنز دما قانياً كالشفق؛ وعلى الرغم من ذلك رفعت رأسها بإصرار، منطلقة نحو عالم هادئ وجميل.

دارت على عقبيها وسحبت ستارة النافذة، ألقت نظرةً إلى الزقاق الوسخ. كان ثمة أطفال يلعبون، ونساء افترشن دكات المنازل يتكلمن بصوت عال، تركت النافذة واتجهت نحـــو الـسـباب، وظلت مسمرةً في مكانها بزهة ثم اتجهت صـــوب الجدار إذ لمحت نادية فوق السطح. كانت نادية ذات بشـــرة بيضاء ترتدي ثوباً أزرق. اقتربت نادية من الجـــدار ووضعت كفها على الحائط الواطئ، تطلعتْ إلى السماء وأردفت:

-بدأت ملامح الربيع تطل علينا.

هـــزت سلمى رأسها بالإيجاب، رفعت بصرها إلى السـماء التي تناثرت فيها سحب ناصعة البياض، ألصقت ذقـنها فوق الجدار. همست نادية وهي تعبث بحلية فضية تتدلى فوق صدرها.

-هل تحبينه كثيراً؟

بــرقت عيـــنا سـلمى بـــبراءة، هزت رأسها ثانية وابتســمت بــرقة. كـــان الوقت عصراً والشمس تسكب ضـــياءها الرائع على الشرفات وسطوح المنازل وجدائل الــنخل الخضـــر، فيما تهب ريح باردة تهز جدائل وغصون الأشجار، وعادت نادية تسأل من جديد:

-هل تعتقدين بأنه سيعود؟

أدارت سلمى رأسها ونظرت إلى المنازل الواطئة، ثم قالت وعيناها تلتمعان:

- بالطبع سيعود. يعود حتماً.

ألقت سلمى شعرها فوق كتفها، مضت تلف ذيل جديلتها حول سبابتها، وفي قاع عينيها لاح شعور غامض بالكآبة.

- هل أنت واثقة من ذلك؟

نظرت سلمى إلى نقطة ما في اللانهاية، وقالت بلبق:

-أنا واثقة من عودته. نعم واثقة. هل تعتقدين بأن طائر السنونو الذي بنى عشه في باحة دارنا يقدر العيش وحيداً؟ بالطبع لا. منذ عشرة أعوام وأنا أرقب طيور السنونو تأتي وتبني أعشاشها في أركان الباحة. وفي كل عام تغادر صيفاً ثم لا تلبث أن تعود من جديد. هل يمكن أن تتصوري سنونوةً تقضي النهار وحيدةً؟ لا يمكن أن يبقى هو بعيداً، لا بد أن يعود إلى عشه، نعم عشه، هنا، في صدري.

لمحتها نادية تشير إلى صدرها، وحينما أطبقت سلمى شفتيها بإحكام أحستْ نادية أن جارتها تبكي بصمت، بعد صمت مطبق انهمر الصوت:

-هل ترينه في الأحلام؟

فيسبوك//الكتب كتب.كتب

-أراه كثيراً. مرةً لمحته يحمل بين ذراعيه بدلةً من (التول) مزينةً بأشرطة الدانتيلا البيضاء. كان وجهه مشرقاً بالفرح وثمة أطفال بثياب خضر يلتفون حولنا مرحين. حين ناولني البدلة الجميلة وضع إكليلاً من الزهور البيضاء حول عنقي وقبلني في ثغري.

توقفت سلمى عن الكلام وتابعت:

-كان يحدثني كثيراً عن الوطن والفقراء.

أخذت نادية تنقر بأصابعها على الجدار، وتفرست في وجه سلمى الذي كساه الأسى.

-لماذا لم يطلب يدك من والدك؟

-أوه، إقتادوه قبل أن يفعل ذلك.

رفعت نادية شعرها، واستدارت واتجهت صوب باب السطح وبعد قليل سمعت سلمى انصفاقه. اتكأتْ سلمى بظهرها إلى الحائط وشرعتْ تتأمل السماء ثم رنتْ ببصرها إلى المنازل البعيدة، وخيل إليها على مدى لحظات قلائل بأنه سينبثق فجأةً من بين تلك المنازل ويأتيها فاتحاً ذراعيه وخلفه يهرول أطفال يرتدون ثياباً خضر.

مضت تسحب قدميها بتثاقل، سمعت صهيل الفرس يأتيها عبر المسافات. وقبل أن تلج غرفتها أرهفتْ السمع

لدقات خافتة على السلم. وعندما انبثق جسد طفلة صغيرة شـــدت ظفيـــرتيها بشريطين أحمرين، عادت إلى الوراء خطوة واحدة وبدت جامدة مثل تمثال إغريقي.

قـــالت الطفـــلة وهـــي تـــدق الآجرة بمقدمة حذائها الأبيض:

-أرسلتني والدتي. البسي ثوبك الوردي وانزلي إلى الباحة.

اختـــلجت شفتها السفلى وخفق قلبها كالجناح فسألتها بدهشة:

-لماذا؟

-ثمة نساء غريبات في الأسفل يردن رؤيتك.

الكوت 1975

فيسبوك|إكتب. كتب كتب

فيسبوك//الكتب. كتب. كتب

الأبيض والأسود

كان ذلك في عصر يوم جميل.

كانت الساعة تقارب الرابعة.

حلّق الطائر الأخضر ذو المنقار الأحمر فوق بيوت مـــن الطين وأكواخ من القصدير. في الختام شاهد حديقةً واســـعةً تحيطها منازل شاهقة وعمارات ضخمة وفنادق راقيـــة ذات أثـــاث فاخـــر ومسابح نظيفة يقطنها التجار الأجانب.

دخل الطائر الحديقة الجميلة، فألفى البستاني حزيناً، مطأطئ الرأس، مجللاً بالكآبة. ألقى عليه السلام فلم يردْ، وحيـــن حيـــاه ثانيـــةً رد التحية دون أن يرفع عينيه عن الأرض المكسوة بالخضرة.

قـــال الطائـــر الأخضـــر: "لم أنت حزين؟ حواليك الـــزهور والطيور والأطفال الحلوين. عليك أن تحمد الله،

فأنت تعمل في هذا الحي الراقي حيث العمارات السامقة والفنادق الكبيرة والتجار الأجانب الأنيقون النبلاء.

رد البستاني: "إني أسكن هناك، في الضاحية الجنوبية، في بيت من الطين. أرجو أن تكف عن التفكير في هؤلاء القوم الأنيقين ببدلاتهم الإنكليزية، إذ إنهم لا ينثرون دولاراتهم في الحدائق كما يفعل الناس حين ينثرون الدراهم على رأس العروس، إنك تسألني لم أنا مدلهم الوجه، لكنني أقول لك إنني أعاني من آلام المفاصل. فقد قضيت عشرين عاماً أعمل في الأرض حافي القدمين والرطوبة تتسلل إلى عظامي النحيفة. وها أنا ذا صفر اليدين لا أملك من الدنيا شروى نقير.

تجول الطائر في الجنينة، فشاهد نافورة ماء تتدفق منها المياه إلى الأعلى ثم تسقط في الحوض الذي تطفو فيه زوارق من ورق، أخيراً صادف ثلاث زهرات وحياهن ببسمة صغيرة. ردت الزهرتان البيضاء والسوداء التحية. أما الصفراء فقد ظلت صامتة واجمة.

سأل الطائر بدهشة: "ماذا حل بأختكما الزهرة الصفراء؟"

فأجابت الزهرة البيضاء بصوتٍ هادئ: "هي الآن شاحبة ومريضة. في الأصل كانت زهرةً حمراء كشقائق النعمان إلا أن المغني الذي جرح في السجن الكبير أراد

أن يواصل أغنيته فهرعت إليه ومدته بالدماء الحمراء. وفي الحال عزف على قيثارته فتصاعدت الأنغام وراح ينشد مقطعاً جديداً من أغنيته ثار السجناء. بيد أن المغني ما لبث أن سقط صريعاً برصاصاتهم الغادرة التي طرزت صدره. أما هي فقد أمست شاحبةً، ممتقعة الوجه، عابسة، ومنذ ذلك الحين أصبحت صفراء، هي، طبعاً، لا تتحدث إلا لماماً"

تطلعت الزهرة البيضاء إلى الزهرة الصفراء، وتنهدت بعمق.

قال الطائر ذو المنقار الأحمر مواسياً: "مسكينة. ونظر إليها بعينين يطل منهما الحنان والرأفة، التفت إلى الزهرة البيضاء قائلاً: "ولماذا أصبحت زهرةً بيضاء؟"

تأملت الزهرة البيضاء نفسها وكأنها عروس شابة ترتدي ثوب الزفاف الأبيض. قالت: "ولدت في مدينة أناسها طيبون شرفاء. في تلك السنة أمم الشعب النحاس. وزعت الأراضي على الفلاحين، صدرت الصحف. وأُقيمت مهرجانات للفرح والغناء والموسيقى والتسلية البريئة. وجاءت أطيار بيض فملأت المدينة ورفرفت فوق رؤوس الناس وحطت على أبنية المدارس والنقابات العمالية.

وتأملت الزهرة السوداء نفسها وكأنها أرملة بائسة ترتدي ثوب الحداد الأسود. لمعت الدموع في عينيها وهي تقول: "أما أنا فقد وِلدتُ في مدينة ترتكب فيها الأفعال السوداء. وتنتشر فيها الأمراض ويشيع الفساد. كان الأطفال يرتجفون من البرد الشديد وتصاب النسوة بالسفلس، ويستشهد النقابيون في الشوارع.

يترك الشيوخ والعجائز في أكواخ وضيعةٍ حقيرة ليموتوا في صمت، بسبب الجوع أو السل أو الحزن العميق"

خيم صمت ثقيل، بعد برهة سألت الزهرتان البيضاء والسوداء في وقت واحد: "ولماذا صرت طائراً أخضر؟"

أجاب الطائر: "وِلدت في يوم صيفي. كسرت القشرة بمنقاري وخرجتُ إلى الدنيا. كانت السماء تنث مطراً أخضرِ فنبت لي ريش أخضر زاه. حين تعلمتُ الطيران صرتُ أرى العشاق الحِلوين يحفرون أسماءهم علىِ الأشجار ويرسمون أفئدةً تخترقها السهام. عندما كبرت أنبأوني بأن مدينتنا كانت تشتهر بالحب الوفي والعواطف النبيلة السامية"

وفي تلك اللحظة لوت الزهرة الصفراء عنقها، اندهش الطائر الأخضر والتفت مذعوراً إلى الزهرتين البيضاء والسوداء.

فيسبوك كتب

بعـد قـليل قـال بصوت هامس: ماذا حل بها؟ هل أصابها مكروه؟" فانتهرته الزهرة البيضاء وقالت بصوت متهدج: "صه، إنها تحتظر

ران صـمت حـزين وظل الجميع واجمين، فاضت الدمـوع في عينيّ الطائر الأخضر وفي نفسه قال: "حقاً، هـناك من يموت في صمت وهدوء، دون أن يعرف بهم أحد، ودون أن تتناقل أخبارهم، وكالات الأنباء".

بعـد برهة ماتت الزهرة الصفراء. دفنوها في طين الجنيـنة، كان البستاني مغتماً مطعوناً من الداخل، يسكب العبرات.

وفي النهاية حلق الطائر الأخضر ذو المنقار الأحمر مودعاً البستاني وصديقتيه الزهرتين وصفق بجناحيه تحت سماء زرقاء كوبالتية.

ظـلت الزهرتان السوداء والبيضاء وحيدتين. وظل العـالم مشطوراً إلى نصفين أبيض وأسود. أبيض منور بهيج وأسود قاتم حزين.

الكوت 1978

فيسبوك/الكتب/كتب بكتب

الثوب

غلبه النعاس، وود للحظة أن يتهالك فوق سريره الخشبي ويغمض عينيه المتعبتين. أبعد فكرة النوم عن ذهنه وحمل أربع كرات مفلطحة ووضعها فوق الأرضية، دوي صراخ الأطفال والصبيان ما يزال يرن في جمجمته الصغيرة، مسح جفني عينيه بسبابته وانداحت خصلة شعر فاحمة أمام عينيه فسحبها إلى الصدغ، نظر إلى الساعة اليدوية المعلقة ورأى عقاربها الثلاثة. لا يزال يذكر وجه أمه عندما كانت خيوط قد حيكت لتوها. قالت له:

-إذا لم تذهب الآن سيجلبون غيرك.

-ما زلت بحاجة إلى النوم، إني متعب.

وعـــندما خـــرج كان والده قد ارتدى بدلته الزرقاء وجلس يتناول الجبن والخبز. في العام الماضي كان يقف في مستطيل الباب ويودعه. أبتاه، اشتر لي قماشاً لدشداشة

صـيفية، أنت تعرف أنني بحاجة إليها.. بابا، أنت تشتغل فـي معمـل النسيج ومع ذلك فأنت لا تشتري لي قماشاً تصـنعه أنت بيدك.. بابا ألا يعطونكم قماشاً ويقولون هذا لأولادكم؟

أربعـة صبيان ورجل يقفون خلف المنضدة المغطاة بايـزار مـلون، يومياً تأتي الوجوه نفسها وتقف قليلاً ثم تـرحل، هـذه الصـبية ذات العيـنين الواسعتين كم هي جميلة!! تأتي مساء كل يوم.. تحدق في عينيه وتبتسم.. ما أجمـل ثوبهـا الأخضـر. يحدق في كعبي قدميها ويرى الشقوق العريضة.. يدرك معنى الشقوق ومعنى الابتسامة. يـود لو تبقى طويلاً كي ينسى تعبه. ولكن دورها سيأتي فتأخذ حصتها وتذهب. قبل أيام قالت له باسمة:

-أنـت تتعب كثيراً والخيوط الحمراء تلوح واضحةً في عينيك.

-لم أنمْ ظهراً. أخشى أن يمضي الوقت وأنا نائم.

هؤلاء الصبيان سيمضون بعد قليل. يتناولون العشاء ويغرسـون أسـنانهم فـي قطع الرقي الهلالية. يحسون بحـلاوة الثمر الأحمر وتدفع ألسنتهم حبات الرقي السود ليقلـوها بعدئذ ويأكلونها في السينما، طيلة حياته لم يذهب إلى السينما.

المعلم يتكلم عن بعض الأشياء قائلاً لهم: لا بد أنكم رأيتم في السينما. أغلبية الرؤوس تهتز بينما يظل رأسه ساكناً وعيناه متحجرتين. هؤلاء الصبيان يقضون أيامهم في اللعب. إنهم ينامون كثيراً ويلعبون كثيراً. وهذه الصبية لا تبدو عليها علامات الراحة، هذه الصبية تتعب كثيراً مثله، آه، ما أجمل عينيها الواسعتين.

مد الرجل الذي يحمل الملقط ذراعه في داخل التنور وأداره عدة دورات وأخيراً أخرجه، أصابع كفيه محترقة ومتورمة. انتقل إلى التنور حيث النار ترسل لهيبها خارج الفوهتين لتصطدم بوه السمر وبالتالي يصبح المكان ساخناً كالجمر.

ضرب الصبي المنضدة بالكرات عندئذ التفت بالطحين وبعد قليل أحس بمرونتها في كفيه ووضع الكرات في نفس المكان. نظر إلى ساعد الرجل الذي يحمل الوسادة ولاحظ عروقها الناتئة فقال في سره: "كم يلزمني من العمل حتى يصبح ساعدي ضخماً مثل ساعده وتظهر عروق يدي كالحبال؟!"

أغلق جفنيه مرتين متتاليتين وأحس بثقلهما. وود مرة أخرى أن يرتقي السلم الحجري ويتهالك فوق السرير، يرتقي السلم ويعب جرعتين من الماء من إناء الفخار فيسمع فجأة صوت أخته الصغيرة في المهد. تتحرك

خطواتـــه نحوها ويقبلها في الوجنتين والجبهة. يقول لها: كم أحبك يا سوسو!! كم أحب أن أقضي النهار معك! ربما أنت ضجرةٌ مني لأنك لا تجدين أحداً تضحكين في وجهه، كـــم أحبك يا سوسو لكنه العمل، العمل يا سوسو حبيبتي، يضع زجاجة الحليب بقربها. يربت على صدرها بلطف. نامي. نامي عزيزتي. فغداً عندي عمل كثير.

أشـــار صبي بأربع أصابع للرجل ذي الملقط الكبير. وظل الرجل الذي يحمل الرقية يحدق في شابتين مرتاعاً وهو لا يني يهز ذراعه ويغمغم بصوت خافت. نقل الرقية إلى الذراع الأخرى وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، فيما ظل الصبي يتنقل بين المنضدة والجسدين المتحركين.

وفجـــأةً ســـقطت من يده كرة العجين وانفرشت فوق الأرض، حدق بحزن إلى الكرة وأحنى جسده وظلت عيناه تـــرقب الصبية. اقتنصت أصابعه الكتلة البيضاء ورماها فـــي برميل في الركن. وعندما عَاد قال أحدهم وهو يزيل العجين عن كتفه:

-يبدو عليك التعب، تستطيع أن تذهب.

-لا، بقي على انتهاء العمل نصف ساعة.

في داخله كان يود أن يذهب ويحمل في يده الدراهمِ الأربعـــة ولكن الرجل الذي يرتدي البيجاما سيتعب كثيرا فـــي المـــدة المتبقية وربما يراوده الضجر شعر برغبةٍ

جارفة في أن يبلل جسده بالماء. يغرف الماء من الحوض الصخري ويلقي بالماء على جسده ليمحو آثار التعب ويشعر بالانتعاش. يستلقي في السطح ويحدق في النجوم والقمر المضيء. حاول مرة أن يحسب عددها فأخطأ وحاول مرة ثانية ففشل أيضاً وأخيراً قرر أن عد النجوم بشكل صحيح شيء محال.

سيارات الفورد والايكاروس تقف قبالته، ها هم الناس يترجلون بعد أن أمضوا بعض الوقت يتجولون في المدينة ويتأملون تمثال الصياد قبالة السدة.

قال له أصدقاؤه: نحن لا نراك. أين تختفي؟ لماذا لا تأتي معنا؟ سترقص الغجريات هذا اليوم. نحن لم نر في حياتنا الراقصات الغجريات. تعال معنا، من فضلك.

لماذا لا تأتي؟ سنصنع طائرةً ورقية ونلصق عليها صورةً جميلة ونطلقها في الفضاء. لماذا لا تأتي؟ سنصنع لك طائرةً من هذا النوع.

غادر الصبيان المكان ومن ثم الرجل وبعدها غادرت الصبية ذات الثوب الجميل وهي تشيعه بنظرات ملؤها الحنان. وظل الصبي الواقف يشير بأصابعه الأربعة.

وضع الرجل الأسمر الغطاء على فوهة التنور ورمق الصبي الواقف خلف المنضدة بنظرة عابرة. نظر

الـرجل إلى أصـابع كفيه المحترقة وأدرك قساوة العمل اليومي.

رمى الـرجل الأسـمر رغيف الخبز فتلقفته أصابع الصـبي وشعر بحرارته فسحب كفه وصفر، ها هو آخر إنسان يرحل وسينقطع الأزيز في رأسه حتى صباح الغد، ليعـاوده مـن جديد، رأى الصبي يضع أرغفة الخبز في حضـنه وبانت ساقاه السمراوان وأخيرا غابتا في العتمة. هؤلاء الصبيان ما أجمل حياتهم!!

يقضـون أيامهم في اللعب.. يصعدون فوق السطوح حامـلين الطائرات الملونة. يشدون بها البالونات المملوءة ـاز. يربطون طائراتهم.. وفي الليل يظلون يحدّقون فيها تحت ضوء القمر حتى يغفون.

شـعر الصـبي بألم في رأسه. وأغمض عينيه عدة لحظـات. كانت النار تبدأ بالخفوت والرجال الثلاثة كفوا عـن العمل وبدأوا يغتسلون، نظروا إليه وهو يسند ظهره إلى المنضـدة ورأسـه يتدحرج إلى الوراء. مسح أحدهم وجـه الصبي بالماء وأشار إليه بموعد انتهاء العمل. فتح عيـنيه المحمـرتين وأحس برغبة جارفة في إغماضهما ثانية. تناول النقود وهمّ بالخروج.

-لن أحضر غداً.

-حسناً

هـــرول مسرعاً وهو يمسك بجيبه. كان فرحاً وفي ســـره كـــان يقــول: "هأنذا أعود إليكم يا أصدقائـي. هل ستصـــنعون لي طائرةً ورقية تحمل صورةً جميلة؟ أيتها الصبية ستكونين أجمل عندما أراك غداً. آه كم هو جميل ثوبك الأخضر!!"

الكوت 1975

عاشقة العصافير

الشمس فوق رأسها تماماً كرة من نار والهواء الساخن يصفع وجهها الجميل. كانت تقفز فوق الصخورِ وتتطلع إلى النهر بينما كانت ضفيرتها تتأرجح مغمورةً بين كتفيها وظهرها وقد شدت بشريط أخضر.

مسحت حبات العرق المتلألئة فوق جبينها وصدغيها ثم مررت أصابعها فوق ثوبها البنفسجي. تنفست رائحة الجرف الآسن ثم توقفتْ قربِ طفل رفْع ثوبه إلى الركبتين. صاحت بصوت رقيق: "هل تصطاد السمك؟" كانت عيناه بلون اللوز وشعره أسود فاحماً. التفت إليها وابتسم ببرود. "الأسماك الصغيرة" أوغلت في الماء وصعدت إلى الصخرة حتى أصبحتْ لصقة. سحب (الشبكة) إليه فلمحت الأسماك الصغيرة تقفز وتتلوى بعد أن وقعت في الشرك.

"إنها صغيرة جداً، ماذا تصنع بها؟" سألته فيما كانت تـنظر بـلهفة إلى الأسماك. "أضعها في الماء وفي علبة زجاجية قرب سريري وأظل أحدق فيها حتى أغفو وقفز إلى الجـرف ثـم أفرغ الأسماك في علبة معدنية علاها الصدأ.

وسألته:

-هل تعرف السباحة؟

-نعم.

-هل يغرق الأطفال في الصيف؟

-نعم. والدتي تقول بأن ثمة سعلاة ترتدي ثوباً أسود تظهر في الصيف وتلتقط الأطفال وتعود ثانية إلى الماء!!

فـي الضفة الأخرى ظهرت مخلوقات سود ثم بدأت تدخـل الماء- حمل العلبة وسار فوق الرمل فيما سارت هي إلى جنبه. سألها:

-أين بيتكم؟

-بيت خالتي في الزقاق الثاني!

كانت عيونهما تجول فوق الرمل وقد لمحا عصفوراً ميـتاً ممـدداً عـلى ظهره وقد سال الدم أحمر قانياً فوق صدره. حملته بين أصابعها وأرسلت آهةً مخنوقة.

-آه، لقد مات!

حملقت في عينيه وقد بدت مغتمةً ومطعونةً من الداخل.

-هل ترى؟ إنه ما زال صغيراً.

-نعم. ربما قتل لأول مرة يجرب فيها الطيران.

أمسكت جنحيه، وحركته في الهواء.

-كان يطير هكذا.. هكذا..

-ربما لو تأخرنا قليلاً لكان القط قد انقض عليه والتهمه.

كان العصفور بين أصابعها صامتاً حزيناً.

-ربما لو لم يمت لكان قد بنى عشه فوق أغصان سدرتنا.

-في منزلكم توجد سدرة؟

-في بيت خالتي.. خالتي حبلى وتقول إنها ستنجب طفلاً جميلاً.

-هل تمسكين بالعصافير فوق السدرة؟

-لا، إنها تطير، تطير... لكنني أحبها.. أحبها.. وأتأملها وهي تشرب الماء من الحوض الأسمنتي في وسط المنزل.

ســـارا معــاً في الزقاقِ، لاحت أجساد ملفعة بالسواد تحمــل فــوق أكتافها سلالاً من الخوص. وقبل أن يدخل الدار قال لها:

–يبدو أنك تحبين العصافير.

–نعم.

امــتدت نظراتها إلى قطة صغيرة يجرها طفل حليق الرأس.

–لكن هذا العصفور ميت تماماً فما هو نفعه؟

–أحبه.

–لكنه لا يقدر على الطيران.

–العصافير جميلة. سيلعب مع دميتي الصغيرة.

* *

فــركت عيــنيها ومدت ذراعها بحركة آلية، لمِ يكن العصــفور موجــوداً.. كانت الدمية ما زالت جالسة فوق البســاط الصغير الملون وقد أسبلت أجفانها وفوق شفتيها ارتســمت ابتســامة عذبة. انتابها حزن مفاجئ فنهضت الطفلة وقالت للدمية:

–أين العصفور؟ لقد تركته في حجرك ليلاً.

كانت الطفلة الدمية صامتة. صاحت بحدة:

-لماذا لا تجيبين؟ أين العصفور أيتها الملعونة؟ لمن أعطيتيه؟

هزت الطفلة الدمية من كتفيها فتأرجحت واضطجعت على ظهرها فيما ظلت ساقاها معلقتين في الهواء.

-هـــاه، تتظاهرين بالنوم؟ قولي لي من أخذه منك؟ قلت لي ليلاً بأنك تحبين العصفور وسوف تلعبين معه غداً في الصباح.

مدت أصابعها تحت ثوب الدمية وصرخت من جديد:

-هل أخفيتيه تحت ثيابك؟ أوه غير موجود. حدثيني، هل أخذه القط؟

كـــانت الدمية مازالت صامتة بينما كانت هي حانقة غاضبة.

* *

جلست فوق الأريكة قرب خالتها.

-هل دخل القط غرفتي ليلاً؟

-لا أعلم.

-بـــالأمس كـــان العصفور في غرفتي واليوم عندما أفقت من النوم لم يكن موجوداً.

قالت الخالة:

-يا بنت! العصفور طار.. هرب من النافذة.

قالت:

-لكنه لا يستطيع الطيران.

-كيف؟

-كان ميتاً، عثرت عليه قرب النهر.

-وهل حملتيه إلى المنزل؟

-نعـــم، في الليل كان في حضن الدمية. كان يزقزق بصوت شجي فيما قامت الدمية وجعلت ترقص بفرح..

- يا بنت! العصافير لا تزقزق ليلاً.. إنه ميت.. ميت تماماً.

- لكنــني والله سمعته.. والدمية نفسها كانت ترقص بثوبها الوردي.

- صاحت الخالة بحنق:

- كفى.. كفى!

* *

مـــدت رأســـها تحـــت سرير النوم، وأخذت تتلمس الـــبلاط. رائحة التراب بدأت تنفذ إلى أنفها وأوشكت أن تختنق.

-آه.. لمــاذا تحــب أن تمازحــني.. لماذا تختفي يا عزيزي؟!

لامست أصابعها ريشات جسده الناعمة فخرجت من الســرير واصــطدم رأسها بحائته. نظرت إلى الريشات الــرقيقة وأوشكت أن تبكي. خرجت إلى الحديقة... كان الوقــت عصراً والعصافير تزقزق فوق أغصان السدرة.. نفخــت الريشــات الخفيفــة فطارت في الهواء متأرجحة كــالورق وســرعان مــا أصبحت عصافير جميلة عندئذ أشرق الفرح في عينيها وتمنت لو أنها ترتدي ثوباً مزيناً بالدانتيلا البيضاء وتطير معها.

مــرت الأيام وهي تجلس كثيراً تحت شجرة السدر فتســمع زقــزقة العصافير العذبة. وخلالها أنجبت خالتها طفــلة عيــناها خضــراوان. لكنها أسمت ابنة أختها في سرها: "عاشقة العصافير

الكوت 1975

شجرة جوز الهند

تطلعت سهير عبر الزجاج. كانت السماء تنث مطراً ناعماً كالعشب. توقف أمام الحديقة طفل يرتدي قميصاً له لون الرماد. في داخل الحديقة مدفع وخيمة للجنود. صاح الطفل بصوت عال متطلعاً بيأس إلى كتبه.. إنه يطلب منهم إيواءه تحت خيمتهم. ربما تحدث إليهم عن معلمه وربما حدثوه عن عملهم وعن الحرب. من المحتمل إنهم تذكروا بأن لهم أخوة صغار مثله يذهبون صباحاً إلى المدرسة.

* * *

قبالة المستشفى، على الجانب الآخر من الشارع، حديقة جميلة مضاءة بالأنوار الملونة. في الحديقة أشجار صفصاف ويوكالبتس وشوك البحر. هناك أيضاً مصاطب مطلية بدهان أبيض. تطل الحديقة على نهر

واسع يتقافز فيه السمك وهو يمر عبر بوابات السدة الحديدية.

الحديقة، الآن، خالية تماماً حيث تتبعث ريح خريفية باردة تلعب بأوراق الشجر وتحكي لها قصصاً جميلةً عن الصيف المنصرم. في هواء الحديقة النقي ضحكات وجمل عذبة وغزل دافئ لما تزل معلقةً فيه، ومنذ أن بلغ الناس ديارهم ودخلوها فرحين، أصبحت الضحكات والجمل والغزل طيوراً بيض تخفق أجنحتها مثل خطابات الحب وهي تركب خيول الريح. تظل هذه الطيور معلقةً حتى مساء اليوم التالي عندما يقدم الأطفال بثيابهم الزاهية كالحدائق فتصنع في أكفهم أعواد القش، عندئذ تعبر سماء الحديقة وتصبح نوارس تحلق فوق الأسماك.

المدفع رفع منذ فترة قريبة، والجنود ربما رحلوا الى حبيباتهم وزوجاتهم بينما طارت الخيمة وأضحت خطاب حب مرسل لمحبوبة تقرأ الشعر في حديقة المنزل.

في رواق المستشفى، فتاة ذات بشرة بيضاء كالثلج وشعر أسود كالليل، يدق كعب حذائها فوق البلاط بأصوات متناغمة. لمحت سهير امرأةً في الأربعين تجلس القرفصاء في غرفة إلى اليمين، على وجهها وشم أخضر.

وصلت سهير إلى الباب وجاس بصرها في الخارج. عـــبر الحديقة وسورها الحديدي، حيث يخطر الناس فوق الرصـــيف. فـــي كـــل مسار يمر حميدٌ، يتوقف ويمسك بالقضـــبان الحديديـــة ثم يصبح دافعاً ذراعه في الهواء. "هيه، أنت، أيتها البنت، أعرف أنك تذوبين حباً، تحبينني حتى الموت، لكنني لن أتزوجك قط.. قط".

تطلق سهير ضحكةً عريضةً وتتأمل عيني سناء.

[قـــالت امرأة في الأربعين موشومة الرسغين: "مرة لقـــي زوجـــي حميـــداً في حمام رجالي، كان حميد يغني بصـــوت عـــال والرجال العراة يستمعون إليه ويطلقون صـــيحات الإعجاب.. عندما انتهى حميد من الغناء قدم زوجـــي له قطعة من الصابون لكنه رفضها وفجأةً نهض وتناول قشر برتقال مرمي على الأرض وأخذ يمرره فوق فروة رأسه."].

تـــرن الجملة في رأسها مثل دقات ساعة جدارية في مـــنزل خـــال "لكنـــني لن أتزوجك قط.. قط.."، في هذا المساء لم يأت حميد ولم يطلق صيحته المعتادة.

عـــلى جـــري عادتها، تفكر سهير الآنَ، هل يتزوج حميد، ومن تلك التي ستشاركه الفراش المغطى بشرشف وردي؟ وربما سيتزوج مجنونةً مثله أو على الأقل امرأةً ذات عاهة.

[في بعقوبة كانت ثمة مجنونة اسمها (فطومة). كانت متزوجة ولها طفلان يرتديان ثياباً ممزقة تجرجرهما وراءها وهي تعبر الأسواق والأزقة الضيقة مطلقة كلمات بذيئة كلما ناداها المرء. لكنها اختفت في السنوات الأخيرة، ويقال: إنها في بغداد الآن].

جاءت أم حامد وتوقفت جنبها. تطلعت إليها في عطف.

قالت سهير:

ـ حميد لم يأت اليوم.

ـ أوه، هذا مجنون.. مجنون...

كانت أم حامد ترتدي ثوباً رمادياً. اندفعت في الرواق وغابت في جوف غرفة إلى اليمين. من جديد وجدت سهير نفسها متوحدة مغتمة مثل شجرة جوز الهند العقيمة. وقع بصرها على جذع الشجرة وراحت عيناها تتسلقان الجذع حتى عانقتا السعفات الخضر الشبيهة بالمظلات. فكرت سهير في سرها بأن هذه الشجرة العقيمة تنتصب منذ عامين أمام بصرها مثل شاهدة قبر.

**

سهير تجلس الان على كرسي بشرائط صفر، وسناء على كرسي بشرائط زرق، على مقربة منها تجلس امرأة

في الأربعين فوق حشائش. في مواجهتهن جميعاً تنتصب شجرة الجوز مثل سكين ذي نصل مسموم.

أشارت سهير بيدها إلى الخارج.

ــ خلف هذا السور كان الأطفال يلعبون وفي عيونهم فرح غامر.. في حين..

سألت المرأة:

ــ أين المدفع؟ هل رحل الجنود؟

قالت سناء:

ــ الحالة انتهت. زال التوتر.

في هذه الأثناء مر شابان فوق الرصيف وحدقا إليهن عبر القضبان الحديدية. قالت سهير بحزن:

ــ إنهما مثلنا تماماً، وفي عيونهما شوق عارم..

قالت سناء بفرح:

في مساءٍ صيفي رائع، كانت أصابعه تلعب في شعري تارةً وتارةً يمررها فوق زندي قائلاً بأني أمتلك ذراعاً ناعمةً كالحرير.

قالت المرأة وهي تتذكر بمرارة:

ـ لم أر زوجي إلا في ليلة العرس. كان يحب الوشم كثيراً، ويقول بأنه يتذكر الحقل عندما يراه منقوشاً على جسدي. لكنه، للأسف، ترك الحقل وجاء إلى المدينة.

لفت سهير ساقاً فوق أخرى، في حين راحت سناء تلف خصلة شعر بلون الغرين بأصبعها، خصلة رقصت على خدها المورَّد. أسندتْ المرأة ذقنها إلى راحة اليد.

قالت سهير:

ـ حميد لم يأت هذا المساء.

قالت سناء:

ـ حوادث الدهس كثيرة هذه الأيام.

قالت المرأة:

ـ والده تاجر حبوب ذائع الصيت.

كان الليل طائراً أسود يبعث أصواتاً محزونةً كالصحراء، يهبط فوق صدر سهير. وحديقة المستشفى لما تزل مضاءة والناس بدؤوا يندسون تحت الأغطية أو يتأملون القمر وهو يمر عبر الغيوم الداكنة.

راحت سهير تزرع نظراتها في الشجرة. أومأت برأسها. وقالت:

ـ بدأت أضجر منها على نحو جلي تماماً.

لم ينهمر الصوت. عاد الصوت حزينا. كالقبر

ـ أنا يا أم حامد مثلها تماماً. أنا متوحدة ومهمومة.

قالت سناء:

لكنك تؤدين هنا واجباً إنسانياً.

ـ أعرف.

قالت سهير باقتضاب وسرح بصرها إلى البعيد. نظرت سناء إلى الساعة الصغيرة في معصمها وانهمر الصوت.

ـ في مثل هذه الساعة، قبل أسبوع، كنا في الكازينو المطلة على النهر.

حركت سناء الخاتم في إصبعها الأيمن وبدت كالحالمة.

-لا أدري هل أخبر الفلاح بأني بدأت امقتها.

-هل تريدين إقتلاعها من المدينة؟

هزت رأسها بالإيجاب، فجأة ، سألت سهير:

-آه، لاأدري كيف نسيت، أين هي الطفلة ذات العينين الخضراوين؟

-ماتت بالدفتيريا في يوم الخميس.. عندما سافرت إلى بعقوبة.

قامت سهير وودت أن تستدير ولكنها قالت:

-آه كم ستكون إمرأة جميلة لو أنها إتمت!

قالت سناء متضاحكةً:

-ربمــا تـــأتي إلى هـــنا فترى شجرة الجوز وتشق بالوحدة.

عندما قامت سناء وأم حامد. حدقت سهير بحزن إلى الشجرة، دق كعب حذائها فوق البلاط ثم أحست بألم مفاجئ في ظهرها فتأكدت بأن الشجرة أخذتْ تفرز خــناجرها المســمومة فـــي حنق وإن مسألة إنتزاع الشجرة من حديقة المستشفى باتت ضروريةً تماماً

الكوت 1975

قصة حب

نزلت إلى البحر.كان هادئاً ورائعاً. قلّبت صفحات ديوانها المفضل. سألته: "ماذا تقرأ؟"..

كان جالساً على كرسي بمسندين. رفع رأسه وأجاب:"الرومانتيزم.

خلعت بلوزتها الصوفية. ووضعت أسطوانتها الأثيرة. تصاعد اللحن خفيفاً عذباً.

كان يجلس خلف مكتب يستقر فوقه مصباح يرسل ضياءً أبيض.

سألت: "ماذا تطالع؟"..

رد دون أن يرفع رأسه عن الكتاب: "سرطان المعدة.

أوقظته في الفجر الأبيض البهيج، قالت: "أتسمع صوته اللطيف؟ إنه يزقزق قرب نافذتنا كل صباح.

قال باقتضاب شديد: "نعم..

كان يفكر بقائمة العمليات الجراحية لذلك اليوم.

ارتدت ملابسها. رتبت شعرها ببطء. صبغت شفتيها بالأحمر. تعطرت. لبست قلادةً جميلةً. تحتفظ بها من أيام المدرســة الداخلية. وضعت قرطين حمراوين في أذنيها. ألقــت الشال الكشميري الوردي على كتفيها. وقفت أمام مرآة الزينة. هي الآن في كامل زينتها.

ابتدرت قائلةً: "هناك فرقة بلغارية تقدم عروضها في إحدى القاعات هل تأت يازوجي العزيز؟".

قال: قد يبعثون في طلبي من المستشفى..".

قالت: "سأذهب وحدي، إذاً"..

قال الجراح الموهوب: بعد صمت قصير: "اذهبي مع صديقتك لوسي إن شئت..

شرب زجاجتي بيرة، شربت كأسين عصير برتقال. تحدثــت عن مشروع رحلة الى وادي الدوردون. تحدث عــن الأشعة السينية. حين بدأت الجوقة تعزف موسيقى الليل الراقصة، لمست يده وهمست:"مارأيك لو نرقص؟".. ظــل صامتاً.ظهر أزواج من الشبان والشابات، بدا عليهم الانسجام والمودة والعنفوان.

قالت مشجعةً: "إنه مساء لطيف. لنرقص معاً".

قال: "أنا جراح متميز وطبيب معروف".

دفع قائمة الحساب وقاد زوجته إلى الشارع.

كانـــا يشاهدان فيلماً سينمائياً تظهر فيه ليف أولمان، شـــعر بالنعاس. تثاءب. قال: "عندنا غداً مؤتمر طبي. ذهـــب إلى الفــراش. شـــاهدت بقية الفيلم وحدها. لبست قميــص الـــنوم ومضت إلى السرير، تمنت لمسة حانية. أغمضت عينيها. شاهدت رجلاً وسيماً. يقبل امرأة موردة الخدين، تحت ظل شجرة في ركن حديقة.

شـــاهدها بصـــحبة شاب وسيم في حوالي الخامسة والعشرين. طويل. ذو عينين زرقاوين، تبدو عليه الحيوية والمـــرح. تمـــلكه الغضب، صرخ: "كيف تجرؤين على تكويـــن العلاقات مع الشبان دون علمي؟ هذا خرق لتقاليد الأســـرة.."، لـــم تنـــبس. زعق من جديد: "متى تعرفت إليه؟" قالت: "في اليوم الذي كنت تكتب فيه بحثاً عن الـــتهاب الزائدة الدودية."، سأل بنبرة لا تخلو من الحزن والغضـــب: "وهـــل اصـــطحبك إلى الـــبحر؟"، أجـــابت بـــتحد: "نعـــم. ذهبت معه. استمتعنا بالمياه الباردة والنسيم الطـــري و الموسيقى الناعمة. فرشنا المناديل على الرمل الندي وأكلنا اللحم المشوي. سألها: "متى جرى ذلك؟".. ردت: "في يوم خفارتك الأسبوعية.". هو (بأسى وحنق): "أرقصتما في نادي التأس؟"، هزت هي رأسها بالإيجاب.

هـــو: "متى كان ذلك؟".. هي: في مساء الاثنين حين كنت منهمكاً في أبحاثك المخبرية على الفئران".

هو: "ماذا يعمل هذا الصبي المراهق؟"

هي: "إنه شاب لطيف عذب الحديث.".

هــو(بســخريه): ومــاهي مؤهــلات هذا الشاب اللطيف؟".

هـــي: "إنه يطالع الشعر. يقول إن الشعر بالنسبة له كالملح في الطعام،

شاعره المفضل أرثور رامبو

هو: "وماذا أيضاً؟..

هي: يسمع موسيقى بتهوفن

هو: "وماذا أيضاً؟"

هي: "يدخن تبغاً كوبياً"

هــو(بنـــبرة ترشح بالازدراء): ياسلام!.. إذاً هو شاب رائع حقاً. وأي المشروبات يفضل ياترى؟"

هي: "إنه يفضل البراندي.

هو: "وهل تعلمين ياعزيزتي إن هذا الشاب الظريف الـــرائع ســـرعان ما يهجرك ليجد عشيقةً أخرى. أغلب الفنانين يبدلون زوجاتهم وعشيقاتهم...إذ تبهرهم كل نجمة

جديــدة، فيهــرعون إليهــا لاهثين: اكتشف روجيه فاديم الحســناء بريجيت باردو وتزوجها لكنه سرعان ماتخلى عنها.

هي: وما أدراك ياعزيزي إنه فنان.".

هو: "تبدو على وجهه إمارات الموهبة الفنية. كما أن صديقي جاك أخبرني بأن لك علاقة مع شاب من الوسط الفني

هو: "أين يعمل هذا الأحمق المغرور؟"

هــي: "قــلت لك إنه ليس أحمقاً.ولم تتكلم عنه بهذه النغمة؟"

هو (بحدة): "ماذا يعمل؟ أجيبي.

هي(بعد تردد قصير): "في السيرك".

هو (بهزء): "في السيرك؟! وتقولين ليس أحمقاً؟! هلِ هــو مــدرب أســود؟.. هل روضك مثلما يروّض نمرة رقطاء؟"

هي: "لا تتلكم هكذا، أرجوك.

هو: "كيف تعرفت إليه؟".

هي: "لي صديقة من أيام المدرسة الداخلية تعملِ في الســيرك. وفــي ذلك اليوم الذي كنت تكتبَ فيه بحثاً عن الــتهاب الــزائدة الدودية التقيتها صدفةً عند حانوت لبيع

الحلوى. تعرف إنني خرجت ذلك المساء غاضبةً لأنك لم تدنُ مني. كنت أعاني من زكام بسيط، أتذكر جيداً؟ تكلمت حينها عن الفيروسات. إذاً، عانقتُ صديقتي بحرارة. صحبتها إلى المسرح. عرفتني إليه قالت: إن فرقتهم زارت ألمانيا وهولندا وسويسرا ولبنان. إنهم يتبعون أنظمةً قاسيةً في تناول الأطعمة للحفاظ على رشاقة الأبدان وجمالها".

هو (بحنق من جديد): "هراء!.. ليذهبوا إلى الشيطان، هم ورشاقة أبدانهم."..

حل صمت.

هي: "لا يجدر بك أن تستخف بالآخرين. نالت فرقتهم إعجاب وتقدير جمهور النظارة على مدى أربعة أعوام متواصلة".

في اليوم التالي قررا الإنفصال، ذهبت لصديقها الشاب المرح. عرضت عليه طلب الانتماء إلى فريق السرك.

صارت تتدرب ثماني ساعات يومياً.

صارت تمارس التمارين الرياضية. وتلعب التنس كل مساء. تخلصت من الالتهابات والأورام والاضطرابات الهورمونية.

صـــارت تتـــبع نظاماً غذائياً. قاسياً. أمست رشيقةً. وبعد مرور عام كامل برزت إلى الجمهور. وراحت تنطْ هنا وهناك مثل كرة من الكاوتشوك. وفي ذلك اليوم كتبتْ إحـــدى صـــحف المســـاء. "إنْ هذه الشابة التي يدعوها زملاؤها كاترين السعيدة منحتْ الفريق زخماً جديداً".

كـــانت بمنـــتهى الفرح والنشوة بعد انتهاء العرض الأول. قالت لصديقها بحماسة:"أشعر الآن بأنني في غاية السعادة. أنا أسعد مخلوق في الأرض.

طاف فريقهم عواصم عدة.

قررت الزواج بالشاب المرح.

في حفلة الزواج بدتْ آيةً في الجمال والروعة بثوب زفافهـــا الأبيض وإكليل الزهر في حضنها. همست بمرح لعريسها الوسيم:" أتدري يا حبيبي أنه لولا الزائدة الدودية لمـــاتم أول لقاء بيننا. ولولا فئران التجارب لما تمكنا من الرقص في نادي التأس. كان زوجي الأول شغوفاً بالقراءة والبحوث.

قرعت الكؤوس المترعة بالشمبانيا وشرب المدعوون النخب.

وفـــي غرفة على ضفاف السين ذابت الشفاه في قبلة طويلة.

\\ \\

ابريل 1979.

كلِ شيء على مايرام.

لا شيء يجري هنا. قطعاً لا شيء.

في الثاني من شباط (فبراير)، كان الطقس شديد البرودة، الريح عاتية. ارتدى العمال معاطفهم السود، وتجمعوا في انتظار القفص الحديدي الذي سيهبط بهم إلى القاع. لم يكن الفجر قد انبلج، والنجوم مازالت تتألق في السماء.. دخل خمسة منهم في القفص. كان أحدهم يشعر بالتعب والنعاس لأنه ظل يسعل طوال الليل، ولم يغمضْ له جفن.

كانت خليتهم تتكون من خمسة مخلوقات بائسة، مقهورة، شاحبة، هزيلة وذاوية. خمسة عمال يستخرجون الفحم بالجاروف،فيما تقوم خلية أخرى بسحب الفحم ومن ثم يضعونه في عرباتٍ صغيرةٍ تدفع بعدئذٍ في ممرات ضيقة.

في خلال العمل الشاق تكون وجوههم ملطخةً بتراب الفحم، وأجسادهم مكسوة بطبقة لزجة من القذارة، كانوا يبدون بوجوههم الداكنة السود، ووجناتهم الغائرة، وأفواههم المفتوحة، وألسنتهم الحمر المتدلية جراء التعب والإعياء ــ يبدون وكأنهم خارجون من القبور.

لم يكونوا يتوقفون دقيقة واحدةً عن العمل. تعوّدوا العمل الشاق. كانت نظرات رئيس العمال تطاردهم طوال الوقت، تحصي شهيقهم وزفيرهم. كانوا يتنفسون الهواء الفاسد والملوّث.

كان رئيس العمال يستكثر عليهم فترة الاستراحة وتناول وجبة الطعام. ينظر إليهم شزراً وهم يفتحون الصرر ويتناولون شرائح الخبز والجبن المملح ويشربون

المقبرة مظلمة يا مليكة. الليل موحش مثل عينيك. والنجوم أيضاً. إذ كان القمر الجميل يغازلها ويهمس ناعساً. يومياً أقبل إلى المقبرة. وفي كل مرة يخيل لي إنك جالسة على العش الندي. ترتدين ثوباً وردياً شفافاً كالماء. جالسة تنتظرين حبيبك، زوجك، بحارك. يومياً، يخيل لي إني أسمع صوتك العذب يحدثني عن جنة العمال.

هناك، في الفردوس الأزرق، هل ثمة عصافير ناعمة مثل نهديك؟ هل يكثر الزهر الطري الرقيق الفوّاح مثل

شـفتيك؟.. هناك أيضحك الأطفال كالفجر ويملؤون الساحات كـالطيور الـبيض؟ هه، حلوتـي، هل تبدلت الأرض، الأرض حيـن ضـمك رحمُهـا؟.. وهل ستلد إطفالاً لهم لون عينيك وسـمرة بشرتك القمحية؟ هل ستصنع الأرض من كفيك ماءً عذباً يتدفق من

القهوة المرة.

فجأة يشعر أحدهم بالدوار والغثيان. يلقي بالجاروف جانباً. الألم يعصر صدره. يتلفت حواليه ويلاحظ زملاؤه المحدودبي الظهور، المتسخي الوجوه. تصعد الغصة إلى حـلقومه، تـزوغ عيناه، يفقد القدرة على الرؤيا، يشحب وجهـه ويزرق، يتصبب العرق من جبينه ويسقط مغشياً عليه. يجيء رئيس العمال. يجس نبضه، ويلمس صدره. ثـم يقـول ببرود شديد: "خذوه إلى الخارج. حالة اختناق بسيطة. إنها بسبب الهواء الملوث.".

يأخذه زملاؤه إلى الخارج محمولاً على نقالة. يبقون إلى جانـبه. وقبل مجيء الطبيب أو سيارة الإسعاف يسلم الروح.

لمـاذا يدفعونهـم نهـاراً إلى تلك الكهوف الحالكة الظلمة، ويدفنونهم ليلاً في الغرف القصديرية المهترئة؟

لاشيء يجري هنا. لا شيء. البتة.

الشمس تشرق كل يوم على أوروبا، وكل شيء على مايرام.

هـــاهو ذا صديقنا الأدريسي، الشاب الضعيف البنية، يرتدي الأطمار الرثة. يجمع القمامة، قمامة الأثرياء.

آه. لاشيء يجري هنا. الأثرياء يثرثرون ويعربدون. تجـلجل ضحكاتهم الشيطانية. لاشيء يجري هنا، مطلقاً. الراقصـــة الحســناء المدمنة على الماريجوانا تتخفف من ثيابهـــا. معذرةً. فالأثرياء ذوو المواهب الرائعة يتمتعون بحياتهم.

كانـــا في مرسيليا، الفصل شتاء، الضباب يخيم على المديـنة. هـناك، صـــادفا الإدريسي، سألاه عن صحته، وعمله فأجاب بعد أن ضحك بمرح على جري عادته:

رحمها ينابيعاً رقراقة مداوية.

إيـــه، هـــل تـــبقين صامتةً، غافيةً، حزينةً، الشعر الناعم كالـــندى يوشـــح وجهك ولا يستبين منه غير العينين المليئتين بالوحشـــة والغـــربة؟ عيـــناك، كانـــا ينام فوقهما، ليلاً، ريش الـــنجمات القـــزحي.. وبطنك كان يغفو فوقها طائر اللذة. إيه، هل تظلين صامتة، وأظل أنا مطعوناً في سويداء القلب؟

هيـــا، مـــليكة، عروسي، شراع قاربي، وجزيرتـي، هيا، انـهضـي. انـهض كالفجر الأبيض، أتسمعين صوتـي؟ ماذا؟ إذاً،

هيا، برفق انهضي، انهضي واستلقي معي على العشب. استلقي على صدري فراشة مبرقشة الأجنحة. استلقي معي، فالندى سينثال فوقنا. ويغطينا بثوبه الشفيف الرائع.

القبر عميق. نعم أعرف ذلك. أعرف مقدار حزنك، ورغبتك بالنهوض.

"إنني أبحث عن عمل. يقولون إن في باريس مصانع كثيرة بحاجة إلى عمال. ربما نكون محظوظين فنعثر على مهنة ما..."، وبعد مضي ستة أشهر، شاهداه في المقهى. التونسي في الحي اللاتيني. كان يتجاذب أطراف الحديث مع صديق له، دون أن ينفك عن فتل شاربه الأيمن. هو لا يزال يتسكع بين مقاهي الحي اللاتيني والأليزيه. لم يعثر على عمل. كان يلتقي كل مساء عاملاً مغربياً أوطالباً تونسياً، يشربان القهوة المرة، يتحدثان عن كل شيء، ثم فجأة تظهر تعابير الجد على وجهه. فيتحدث عن العمل والعمال، عن الأثرياء، رؤوس الأموال، أسهم الشركات، عمال مصانع (ليب) المضربين، عن ضاحية (سورين) حيث يقيم العمال العرب والفرنسيون والأجانب مهرجاناً مسرحياً.

آه، لاشيء يجري هنا.

الإدريسي جمع القمامة في الفجر في حين يكون الفرنسيون نائمين في أسرتهم الوثيرة الدافئة.

كل مساء يعود لغرفته وقد أضناه التعب يرتدي منامته. يدخن. ولما يراوده النعاس يصبح الفراش عشبا، وتختفي الغرفة وتصبح حديقة. يلقاها هناك. يعانقها. وينطرحان على الأرض المكسوة بالحشائش. تتنهد مليكة. يخفض بصره فيرى عنقها الرخامي الطويل. ينصت لأنفاسها السريعة. صدرها يعلو ويهبط. يتصورها طفلة يتيمة بائسة. تتضور جوعاً. تركض في الشوارع والحارات، دامعة العينين ث عن كسرة خبز، تصادف رجلاً عجوزاً بلحية بيضاء متموجة فيعطيها رغيفاً ويقول لها ناصحاً: "بنيتي، لا تذهبي إلى هناك، القذائف تنهال كزخ المطر. تذهب مسر عة. تختبئ في إحدى الحارات.

مليكة، لا تحزني، ارجوك، خذي عروقي، تسلقيها، تسلقيها بهدوء، تسلقي أسمع حفيف ثوبك، أجل، أجل، خطوة، خطوتان. هه؟ زلت قدمك؟ إذن كرري هادئة واثقة. تسلقي. ماذا؟ الحارس؟ الحارس نائم في كوخه القصديري. هو نفسه يكرههم. يكره الأثرياء القساة. الحارس أخبرني إنهم أرادوا نبش قبرك. أرادوا اقتلاع عينيك بأظافرهم. ياه، أنت حزينة يامليكة، وربما خائفة أيضا. ماذا؟؟ نعم.. نعم.. سنهرب الليلة

نقتحم الشوارع فجرا. نرفع علمنا. نسير بقبضات مضمومة. ووجوه متوترة.

هيا تسلقي عروقي وانهضي. لقد أخطأنا تماماً. أخطأنا وغادرنا وطننا. وطن الفلاحين الفقراء. غادرنا وطننا مثلما غادر الفجر حبات الندى ولم يتبادلا التحايا والقبلات.

المعتمة الحقيرة، تنزوي في منزل رطب. تلتصق بجدار إسمنتي. تندهش ترى أحرفاً عربية منقوشةً على الجدران. ترى النيران. النيران تندلع في المنازل القريبة. تصعد السلم الخشبي. وفي الشرفة تجد بندقيةً معبأة بالرصاص.

فجأةً تكتشف أنها قد كبرت ويمكنها استعمال البندقية. يشرأب عنقها. تلمح الجنرال يطلق النار على عمال باريس. تسمع هدير العربات التي يجلس فيها زبانية فرساي المنتفخي الأوداج. في الضواحي البعيدة عوائل تحمل أمتعةً وبطانيات وأدوات منزلية، تخوض في المياه الآسنة. يواصل الناس الزحف. ثياب الذل تقطّع أزرارها بحنق. يملأون بنادقهم بالرصاص. يجهزون المدافع. تنطلق القذيفة الأولى، الثانية، الثالثة. يبدأ المعترك الباسل. يسقط الجنرال في مستنقع قذر. تمتلئ أفواه زبانية فرساي بالوحل. يحتظرون وحيدين، يعود الهدوء لخندق (سان سيمور). تظهر ممرضة شابة تحمل بيدها سلة ملأى

بالورد الأحمر، لفافات الشاش ومحلول الميكروكروم. يسألها الناس عن هويتها فتقول: "أنا عاملة متخفية بزي ممرضة" تعود العوائل المهاجرة إلى منازلها. تشرع الأبواب والشبابيك. ويرى مليكة مغتبطة ووجهها يضحك بمرح لا نظير له. يختفي كل شيء. لا طائرات. لا عساكر. لا أثرياء. ويفيق من الحلم. فيرى باريس تغتسل بمطر الفجر.

ماذا هناك؟

آه، لا شيء. الأمور هنا، دائماً على مايرام.

ذات يوم مضت مليكة إلى طبيب الأمراض النسائية واستلقت على سرير الفحص. قال لها الطبيب الشاب بعد أن فحصها جيداً: "الأمور جيدة، قلب

خذي ذراعي، تسلقي عروقها، أو شرايينها أو أعصابها. تسلقي. نعم، نعم، أشم رائحتك. خطوة رائعة. خطوتان. ثلاث. علام تصرخين ياعروسي؟ آه. ماذا؟ دبابة فرنسية؟ ماذا؟ تريد سحق ذراعي؟ دعيهم يفعلون. لتذهب ذراعي إلى جهنم. لكني أريدك. أريد عينيك، زنديك، شعرك، نهديك، وزهر الساقين، أريد صوتك هادراً في طرقات فرنسا. أريد يديك، تحملان راية العمال. ماذا أسمع؟ أتبكين يا مليكة؟ تبكين في مدن الضياع والغربة؟

سهاد جئنا نبحث عن الذهب. لكننا خسرنا. خسرنا ذهب حياتنا. ذهب شبابنا. ذهب عرسنا. في الباخرة كنا فرحين مثل طائرين يحلقان في السماء. أول مرة. وحين قلت لك بأنني سأبني لك منزلاً من زهر الحدائق. ضحكت ورمتني عيناك بنظرة حلوة..

الجنين يعمل بصورة منتظمة، لا تتعبي نفسك كثيراً، تجنبي الإرهاق والسهر والأدوية والأشعة السينية. ولما رجعت أخبرت زوجها أن الأمور حسنةً إلا أن الطبيب نصحها بتناول الأغذية الغنية بالفيتامينات، والخلود إلى ـراحة و... ـجعة العيادة عند ـداية كل شهر من أشهر الحمل، وأسبوعياً في خلال الشهر الأخير.

حدثت زوجها باسمة: ... يوم إبان سنوات الطفولة، جلست على حافة السرير الأبيض، كانت أمي يومذاك راقدة في الفراش بعد سويعات من الولادة، سألت ـي: ماما من أين يجيء ـطفل إلى الدنيا؟ أتدري ماذا قالت؟ حسناً، قالت: إنه يأتي من السرة، فسألتها من جديد: كيف يا ماما؟ أجابت: إنهم يفتحونها بمفاتيح من ذهب. وهذه المفاتيح لا يملكها إلا الأطباء والممرضات". وبعد صمت قصير قالت: "أتدري ياعزيزي بأنني أتخيل الرحم حديقةً واسعة، فيها طيور بيض وأراجيح وأحواض مياه يسبح بها الوز وفي ركن من أركان

الحديقـة مهود من خيزران وخوص، بها أفرشة مطرزة، وموشـاة بزهور جميلة وورق أخضر، يرقد فيها أطفال حلوين، مغمضي العيون. ينتظرون الساعة التي يسمعون فيها صوت البستاني صائحاً بهم: هيا، أيها الأطفال، كفى نوماً، هيا أفيقوا وغادروا الحديقة بسرعة، فهم بانتظاركم: الأب والأم والجد والجدة والناس الآخرين هيا ياحلوين وبدون ضجيج.

الوقت يمضي. بعدها يؤلمه وذكرياتها تقض مضجعه. في الأسبوع الماضي دهمه المرض، وارتفعت حرارته، فلزم الفراش أربعة أيام، كان يضع الكمادات الباردة على جبينه ويبكي بحرقة. كان يذكر تلكم الأيام، حين كانا ينصتان لأصوات الفئران وهي تقضم خشب السقف. كانا يسكنان في شقة صغيرة.

عندما هبطنا إلى أرض الذهب، تصورنا نحن المهاجرين المغاربة بأننا ربحنا الذهب. ولسوف نحول عمرنا إلى ريحانة دائمة. ريحانة لا تذبل. لكن، واحسرتاه، الأثرياء، سحقوا الريحانة بأحذيتهم اللامعة. سرقوا جهد سواعدنا. وعندما غضبنا وقررنا الإضراب دفعوا بالخنجر خفيةً واغتالوا زهرةً من الربيع. ربيعاً كنا نحن المهاجرين وأنت الزهرة. في حلكة الليل. ساح دمك، دم الزهرة، فوق الحشائش. كان دمك مملكة للغزل الليلي. مملكة شعبها كلماتي، همساتي، قبلاتي،

ضحكاتي، آمالي، هواجسي، أسراري.مماكة كان دمك والملكة أنت. احتضنت الأرض مملكة الغزل وتوجت، الملكة

دافئ حضن الأرض، أليس كذلك؟ ودافئ حضنك لو قيض لطفلنا أن ينام فيه. لولا ذاك الحادث الدموي لنام على زهر حضنك. حشى سائش حضنك

تتألف من غرفة واحدة ومطبخ صغير في الغرفة سريران وكرسيان ودولاب وطاولة واحدة للطعام.

كانت شقتهما في الطابق الأول. وبإمكانهما مشاهدة مايجري في الزقاق. في إحدى المرات سرق غلام قطعة من كبد البقر فلحقه القصاب وبيده سكين طويلة أمسكه من ياقة قميصه وانهال عليه بالضرب والتقريع.

أسفل شقتهما كانت هناك مجموعة حوانيت تبيع اللحم والخضار والأواني المنزلية وكانت تتناهى من الأسفل أصوات الباعة، ضجيج السوق، صياح القصابين وهم ينصحون الصبيان بالكف عن متابعة حركات هر يتخاصم مع كلب على عظم ملقى في عرض السوق. كان شارل قصاباً بديناً، أصلع الرأس كالبيضة، يبغض الكلاب بغضاً شديداً، يصيح بصوته الأبح مهدداً الكلب الذي يزعجه: "انتظر، أيها الوغد، سوف أفقد أعصابي يوماً ما، فأمسكك بقوة وأحز عنقك بهذه السكين.

انـــتظر، أيها الأحمق! انتظر وسوف أريك. سكينتي هــذه ستتلوّن بدمك. كن واثقاً، بأنني سأذبحك من الوريد إلى الوريد. انتظر وسوف أريك!"..

كانا يستحمان في المطبخ. يقوم أحدهما بتجهيز الماء الساخن. كم يكون جسدها رائعاً بعد الاستحمام.

ذات مـــرة قـــال لها: "حين أنظر إلى جسدك البديع الآن. أتذكر الأميرات الرشيقات في الحكايات التي روتها لي جدتي في دارتنا العتيقة في فاس. كم كانت تحكي لي عن حوريات البحر والجنيات.".

"يالك من جميلة!".

"يالك من زوجة صغيرة ناعمة!"..

نعناعِ حضنك. وسأكون فرحاً به. سأجن به. سأطير به. ونحلق معاً. نحلق إلى وطننا الذي غادرناه. سأمد يدي وأقطفه مــن حديقــة حضــنك. مثــلما يقطــف فلاحونـــا البرتقال. ســأعانقه.ســأزرعه بين ضلوعي. أزرعه مدينةً من وطننا، ناســـها قـــلوبهم صافية. لو أنه ولد لجلسنا معاً في الأرجوحة. والريح الخضراء تهب. تهب وتهز الأرجوحة. وتندفع هذه في الأثير. آنذاك نهبط كالملائكة، كالشعراء، نهبط مملكة العشاق، ممــلكة الفقــراء، إذ تمسح أصابعهم الخشنة. العرق الذي يبلل

جباههم ووجوههم. تقبض أكفهم على الخناجر المسمومة التي تروم اغتيال الفرح والشعر والعمال.

ونحـن فـي دارتنا في مملكة الفقراء. يأتي صوتك عذباً شـجياً: ياحبيـبي، هل نزرع في راحتيه زهرتين من الوطن؟ طيب، لنسأله أولاً، ياجوهرتنا

أتخيـلك ياملـيكة شـابة تخطر على الرمل، الوقت أصـيل، السـاحل يكاد يخلو من الناس. وأنا أمتع عينيّ بمنظر جسدك وخصرك الرائع وشعرك الأسود يطير في الريح.

كل شيء على مايرام.

الفرنسـيون يصـطافون فـي سان تروبيز والكوت دازور. يقرؤون سارتر وكامو ولورنس. يحتسون الروم، والويسكي، والبراندي. يأكلون الكافيار. وبكلمة واحدة:

كل شيء على مايرام.

هل كانا يحلمان بالفردوس؟

أجل. أجل.

كانـا يركبان عربة يجرها حصانان قويان. العربة تطير. تشق كتل الغيم. الريح الوديعة تهب. تلاعب عرفي الجواديـن. شعر مليكة يتطاير يلف ذراعه القوية حول عـنقها. يضـحكان مرح طفولي يحدقان مندهشين إلى

الأبـــراج العالية والشرفات السامقة. يجيلان البصر هنا وهـــناك. آ. عاملات النسيج يركبن الحافلات، إنهن، إذاً ذاهـــبات إلى العمـــل. تلك هي جنائن بابل المعلقة... انظري يامليكة صيادو اللؤلؤ الكويتيين يأكلون التفاح في حقـــول بعلـــبك. لكن ماذا يجري هناك؟ هو ذا السيرك المصـــري يزور حقول البطاطس في الجزائر.... يلتفتان لـــلوراء.. يشاهدان مئات العربات. عربات يركبها عمال من كل الأقطار.. أنحن في حلم، عزيزي؟ ماذا هناك في الـــوادي الفســـيح. انظـــري هـــناك. عمـــال سودانيون يرقصـــون عـــلى أنغـــام الطـــبول الأفـــريقية. أتسمعين جيـــداً؟ إنهـــم ينشـــدون لـــلحب والشـــباب والمطـــر.. مـــا أروعـــه مـــن مشـــهد.. شيوخ مرحون ينشدون مع أبـــنائهم وأحفـــادهم. وهـــم مـــنفرجو الأســـارير..

يـــا لؤلـــؤاً ولـــد من محارات أمه. يامن تكون وتبرعم وأزهـــر وأثمـــر مـــن لهيب القبلات. أتحب هاتين الزهرتين البديعتين من وطن والديك، من وطن حبيبك؟ سنزرعهما في كفيـــك. سنزرعهما كي تبقى تحمل في كفيك الطيبتين تاريخ الوطـــن، ذكـــرى الوطن. يهتز رأسه بالإيجاب ويشرق وجهه بالفرح.

مـــا زلـــت صامتة يامليكة. ماذا؟ تبكين؟ عزيزتـي، كنا نحـــتفظ معـــنا بحفـــنة من تراب الوطن. ولكن مذ غبتِ عن

ناظري، عن كفيّ المعروقتين مذ غابت شفاهك الطرية عن أصابعي الراعشة، غابت حفنة التراب. أذكر يا مليكة أنها كانت في قفاز بدلة العرس الأبيض. الحفنة ضاعت يامليكة. وضاع ثوب العرس. عزيزتي وطننا لا يضيع.. لا يضيع.. ماذا سيحصل لو ولد طفلنا هنا؟ حتماً كانوا سيسرقون بسمته، ضحكته، براءته، مثلما

موفورو الصحة، اسمعي يامليكة. تصفيق حار. وزغاريد النسوة في الحقل. يالصوتك الرائع يا فيروز! يالكلماتك الجميلة!

يجن الليل. يجدان سريراً كبيراً لامعاً برمانات نحاسية. سريراً بفراش وثير وشراشف موصلية. فراش ناعم، وسائد وردية من ريش النعام. يرتميان على السرير، ويقبلها في ثغرها. تطوّق الغرفة الغصون الكثيفة والقناديل المضاءة.

في الصباحات الجميلة يعتليان هودجاً مزيناً بالقرآن الملوّن وسعف النخلة العربية. يدخلان مدناً واسعة بدروب زرق وشرفات وردية، مدن الأطفال والعمال المتعبين. مدن السوسن الأبيض والمطر الناعم والحقول الخضر ومدارس الموسيقى وأندية الرقص الشعبي. يمضيان تحت الشرفات، تنهمر عليهما الأزهار الملونة. قلائد اللؤلؤ الطبيعي. ترمي إليهما الحسان المناديل البيض، والخواتم

الذهبية، الملاءات المطرزة، العمائم الملونة، تنهال عليهما الطاقيات المزركشة، الشالات الدمشقية، الخلاخيل الهندية، الجلابيب المغربية، يزدحم الشارع بالناس الفرحين. يرقصان، ينشدان. النساء المغربيات يرقصن (المكونه).

تنبسط أذرعهن. ترتفع سيقانهن، يقابلهن صف من الرجال. يختلطون بنظام أنيق. يتأملون وجوه أخوتهم ورفاقهم. يتذكران النقابين القتلى. يتذكران

سرقوا البرتقال الذهبي من أيدي فلاحينا البؤساء.

ياعروسي. هاأنذا أخلع ثيابي. أتعرى مثل شجرة خريفية. ألتصق بالأرض الآن. اسمعي خفقان قلبي. اسمعي عزف الأصابع. الأصابع التي نامت باسترخاء على كمثرى صدرك. عزيزتي، أتسمعين موسيقى القلب؟ هي موسيقى عذبة، شجية، رائعة، هاأنذا أدوزن أنغام عذابي، وغربتي وحيرتي في ليل فرنسا.

أنت تبتسمين يامليكة. ألمح وجهك ألقاً. رائعة أنت حين تبتسمين حين تلتقط أذناك نبض القلب. تعري مثلي يامليكة. ارقصي لي. ارقصي لي رقصة أخيرة، ارقصي لي رقصة من وطننا. رقصة النصر أو الخلاص.

محبوبتي. أنت بعيدة عني، أنت في أسفل الحفرة، والدبابة تريد سحق ذراعي، لكنك تصرخين. وتأبين أن تمر

الدبابة فوقها، عروسي، بعد أيام سنقوم بإضراب شامل وربما يسددون إلى صدورنا نيرانهم، سوف يتجمع رجال البوليس. يجهزون السيارات والدراجات النارية. ويئز الرصاص. يشمخ العلم في السماء. والآن عانقيني يا مليكة. عانقي غضبي. عانقي قلبي. عانقي رائحتي. نعم.. نعم.. الحارس نائم. والمقبرة مظلمة. الحشائش ندية رائعة. الليل أخرس مثل فمك. عانقيني مرة وإلى الأبد. عانقيني مرة واحدة

أقاربهم ورفاقهم في فاس: يرفعان عيونهما إلى أعلام الدول في المروج والبساتين. يمرح أطفال ترافقهم طيور السنونو وتغرد لهم عنادل الفردوس.

آه. معذرةً، ماذا يجري هناك؟

لاشيء، البتة، كل شيء على مايرام. الشمس تشرق كل صباح على أوروبا.

والأمور هادئة. حتى الموت والجريمة لا يثيران الدهشة. كل شيء ساكن وهادئ وجميل ورومانسي. توجد خلافات بسيطة بين العمال وأرباب العمل سرعان ما تزول ويعود كل شيء إلى حاله.

أبريل 1979.

طوال الأبدية كلها:

مليكـتي الغاليـة. إني موقن بأنك ستنهضين معي الآن. وفـي الغـد نـرفع رايتـنا. ربمـا سيهاجموننا بالرصـاص.وسوف تخترق رئاتنا وأفئدتنا رصاصاتهم. رفاقـنا سيأخذوننا إلى هناك. إلى تلك الحديقة التي التقينا فيهـا على انفراد أول مرة. وسيجاور جسدي جسدك أيام وليـال معـدودات، وسينصهران معاً. ويصبحان ورقة خضراء لها شكل القلب.وسوف تكبر الورقة وتتسع مثل ضـحكة طفل.وستحملها الريح الباردة الخضراء.وتهبط فـي كف مغنٍ ظل يغني في ليل الجوع والحزن والأنين إلا أنه لم يهاجر.

بغداد 1976

المكيدة:

"ثمة وفيات ووفيات، وفيات لا يمكن بل من الحقارة أن تغفرها للعالم". جيمس بولدوين.

عيناه، الآن، حزينتان، يطوف في الأزقة الضيقة، يستبدل الملابس المستعملة بصحون من الخزف الصيني. تزكم أنفه روائح المياه الآسنة. يتعثر بصناديق القمامة. نسوة يلبسن السوداء ينشرن الغسيل في الشرفات الخشبية.

تحاصـــره صورة أمه العجوز التي تبحث عن عظم فـــي صحن حساء، في المقهى يشرب الشاي المر ويدخن تبغاً رديئاً.

يجتاز السوق القديم، المسقوف، يرى صبيان يلملمون بقايا الخضار المرمية على أرض السوق.

يعـــود لداره الصغيرة، المؤجرة، يجلده منظر طفله الـــباحث عـــن قنينة حليب، طفله الرضيع ملفوف بخرقة بيضاء.

ثقيـــل هذا الليل، مسربل بالكآبة والحزن. السماء بلا قمـــر ولا نجـــوم. فيْ صدره، وصدر زوجته، استقرت الطلقات الوحشية، وافتضت عذرية الضلوع.

الليـــلة غادر الكرى الأجفان، ظلت عيونهما مفتوحة في الظلام، الجسدان مستلقيان في صمت حجري. غريب هـــذا الـــليل وموحـــش، وغريبان هما الآن عن القبلات والفرح والطمأنينة.

يســـتلقيان على سرير واحد. كل منهما يواجه جداراً صدئاً.

تقلبت زوجته، ولمست رمانة كتفه. تقلب هو، أيضاً، فواجه عينيها الدامعتين.

قالت بنبرة حزينة: "هل غفوت؟"..

وضع كفه الخشنة تحت وجهها الأسمر الناعم.

قال مرزوق: "أتريدينني أن أغفو؟!"..

قالت غرنوقة: "هل كنا نتوقع ماحدث؟".

رد مرزوق: "لا، لم نكن نتوقع أبداً.

جلست في السرير فيما ظل مرزوق نصف مستلق.

أخـــذت غرنوقة وليدها إلى المركز الصحي. كانت الحافــلة بطيئة. ترفع عباءتها بين حين وآخر، تتطلع في وجه طفلها الذابل، كان يتنفس ببطء شديد.

عيناه مسبلتان. شفتاه متيبستان.

ســحب الطبيب جلد بطنه، عبس وجهه، وكتب لها علاجاً.

عــادت خائرة القوى، علىكتفها طفل بريء، لم يذق طعم الطفولة، يفقد حياته رويداً رويداً.

كانـــا يحــلمان به يملأ الدار غبطةً، يكركر ويلعب ويــبكي، وهـــو ذا الآن كتلة عظام لا حول لها ولا قوة. يحــدق فيمـــا حواليـــه. دون أن يعرف شيئاً من فصول المكيدة المدبرة ضده.

ذات مســـاء عاد مرزوق إلى دارته.. الطقس حار.. عتبات الدور مبللة بالماء. أطفال هزيلون، شاحبو الوجوه، يلعـــبون بكرةٍ من الخرق المتسخة البالية. ثلة من النسوة المتلفعات بالسواد اجتمعن في الغرفة. غرنوقة تجلس فوق البســـاط تنشـــج بحـــرقة. الوليد مغطى بشرشف أبيض. غادرت النسوة الدار وتمتمن بعبارات المواساة، استمرت غرنوقة ببكائها المر. ثم قالت بصوت أبح:

"ماذا تبقى لنا؟"

فـــي اليـــوم التالي دفن مرزوق وزوجته، قرب قبة خضراء، في ضاحية المدينة، طفلهما الوحيد.

حيـــن عـــادا إلى منزلهما شاهدا مهد الطفل الخشبي يتحرك جيئةً وذهاباً. فراشه مايزال دافئاً ليناً ناعماً. فوقه وســادة مطـــرزة الحواشي وخشخاشة ملوّنة كان المهد خالياً.

ومع أن طفلهما الوحيد قد ووري التراب إلا أن مهده الخشبي لم يزلْ يتحرك بلا انقطاع.

الكويت 1993

الزيتون ينبت على الحدود

"وأبي قال لي مرة"

الذي ليس له وطن ليس له ضريح

ونهاني عن السفر

محمود درويش

نهار قائظ

في مثل هذه الأيام من العام الماضي، كانت قطعاتنا تتقدم، تحت لهيب الشمس، وراء بساتين النخل. الشاحنات تثير الوحل فيتطاير على جانبي الطريق أفواهنا أشد يبساً من رمال الصحراء، العرق يتصبب من أبداننا جميعاً، وجوهنا كالحة مغبرة. في خلال الليل كان في مقدورنا رؤية وميض المدافع وسماع دويها الذي يصم الآذان. رجال مدفعيتنا يصبون عليهم نيران الغضب.

أيقظتني المدفعية في صبيحة هذا اليوم، فأجلت البصر فيما حولي. الردهة طويلة، أسرة بيض مصفوفة

على الجانبين، نوافذ كبيرة تطل على حديقة مربعة الشكل تنبت فيها شجيرات خضر. زقزقة عصافير وأنين الجرحى في الأسرة المجاورة. ممرضتان تعتنيان بالعريف – تعرفت إليه لاحقاً– ذي البشرة الداكنة السمرة المائلة للصفر في الناحية اليسرى المطلة على الحديقة. العريف الجنوبي يئن بصوت عال ويتلوى جراء الألم الشديد في ساقه اليسرى. ممرضتان شابتان دخلتا الردهة قبل قليل، هما الآن ترتبان شراشف الأسرة، تضمدان الجروح، وتبدلان قناني المغذي الفارغة، وتزرقان الحقن. معظم الجرحى هادئين ما خلا عدد قليل. وعلى أية حال، ألفت جو المستشفى، واعتدت الروائح القوية: روائح المطهرات، روائح الأدوية، وربما روائح الممرضات أيضاً.

الممرضة ذات الوجه الخمري والشعر الأسود الكثيف مضت إلى النافذة سحبت الستارة جانباً، فتحت النافذة قليلاً ونظرت إلى الخارج.

قبل أن تقترب مني بادرتُ قائلاً: "صباح الخير

ابتسمت ابتسامة طفيفة وردت: "صباح الخير

بدت في ميعة الصبا. فم صغير. جبهة عالية. زي أبيض منشى ظننتُ أني أراها أول مرة. وفيما كنتُ أحدق في عينيها البنيتين اللتين قالتا لي: في وسعك أن تشم

نسائم الصباح المشبعة برائحة العشب الندي، قالت لي وهي تكشف عن أسنانها الأمامية البيض: "كيف تشعر الآن؟ أما زلت تشعر بالدوار؟"

"إني بخير. كنتم في غاية اللطف معي

"ضمدوا جرحك في مركز إسعاف وحدتك. كان جرحك عميقاً"

وضعت المحرار في فمي. تلفتت فيما حولها. على محياها بانت علامات الأسى الذي كانت تحاول إخفاءه عن أبصارنا، لتمنحنا الشعور بالفرح.

قالت بوقار: حرارتك طبيعية".

قلت: "شكراً متى يأتي الطبيب؟"

فأجابت وهي تسجل شيئاً ما في جدول الحرارة: "دخل الردهة تواً. لم ينم ليلة أمس. كان الله في عونه. الأطباء لا ينامون"

"هل اطلعت على أنباء الجبهة؟"

"وفقنا في سحق الهجوم"

"كيف تجري الأمور الآن؟"

لم ترد علي لكنها قالت: "نحن فخورون بكم" صمتت قليلاً وأضافت: "أسرنا أعداداً غفيرةً من رجالهم. قل لي، هل يوجعك جرحك كثيراً؟"

"لا إنه لا يوجعني كثيراً الآن".

"لا يتساوى الناس في القدرة على تحمل الألم"

عندما جاءت الممرضة الشابة لتزرقني بحقنة الأميسلين كانت الشمس قد أخذت في الانحدار، والنهار بدأ يبرد. زرقتني الحقنة.

هي: "هل وعدوك بالنقل إلى مستشفى آخر؟"

أنا: "لا. لكن الطبيب نصحني بمراجعة شعبة العلاج الطبيعي في مدينتي يبدو أن ضرراً قد لحق بعضلات ساعدي.. رحلوا اليوم كثيراً من المرضى"

هي: "في أيام الهجوم نحجز لهم جميع عربات القطار. نحن نسميه: قطار الجرحى

رانت السكينة برهةً من الوقت: ثم أنا: "أتخيل الآن قطاراً مزدحماً بالجرحى، بعضهم جالسون في المقاعد، البعض الآخر نائمون على طول المجازبين المقاعد.. المطر يهطل.. ليل داجي.. والقطار يواصل رحلته طوال الأبدية كلها. الجرحى ملفوفون بالضمادات.. والمطر يبلل النوافذ.. الوقت ليل والقطار يقطع المسافات البعيدة نحو الأفق.. الواقع ليس ثمة أفق على الإطلاق.."

هي: "أحد أطبائنا الشبان يسميه: قطار الألم"

طلبت من الممرضة أن تأخذني إلى الحديقة الصغيرة. ساعدتني في النهوض من السرير وأجلستني على كرسي ذي عجلات ثم راحت تدفع الكرسي إلى الحديقة.

قلت لها: "الحمد لله لم أصب بكسر في عظام ساعدي. أظن أنهم أفلحوا في وقف النزف في الهزيع الأخير من الليل"

قالت الممرضة السمراء: كانت شظية قد مزقت العضلات وشظية صغيرة جداً غالباً ما تقتل إنساناً. عندما وصلت مستشفانا كنت أقوم بالخدمة الليلية في ردهة الطوارئ كان وضعك بائساً"

"أنت إنسانة رائعة. منذ متى تمارسين مهنة التمريض؟"

سحبت كرسياً من اللدائن. جلست عليه وأجابت:

"منذ ثلاث سنوات تقريباً"

لامست بقدميّ الحشائش التي تكسو الحديقة. سمعت حفيف أوراق الشجر، وشممت الأعشاب.

كنت أجلس في حديقة دارنا وأحكي لأخوتي عما جرى في المستشفى.. الليل حافل بالأحداث. لكن دعنا من ذلك. قل لي أين جرحت؟"

"قبل ثلاثة أيام كنا نصب عليهم وابل النيران. وفجأة سـقطت قذيفة على مقربة منا، فانبطحنا أرضاً. وزلزلنا الانفجار وسمعنا صفير الأجزاء المتناثرة. أوه.. يا لرائحة البارود! أحسست بلزوجة الدم الحار.. وأدركت أني جرحت هل حدث وإن كنت في الجبهة؟".

"نعم. قضيت شهراً في أحد مراكز الإسعاف كنت أعود إلى المستشفى منهكة تماماً"

سألتها بتعجب: "تعودين إلى المستشفى؟"

فـردت بأسى: "نعم. لا أملك من هذه الدنيا إلا غرفةً في المستشفى. غرفتي هي بيتي. أنا أقوم بالخدمة الليلية بين يوم وآخر. ذات ليلة سقطت قذيفة مدفع فوق بيتنا وأحالته ركاماً"

كففنا عن الكلام لحظة ثم قلت:

"كانت الحرب نائية عن أذهاننا"

قالت: "هل تعتقد أنها سوف تستمر طويلاً؟"

أنا. "لا"

هي: وماذا ستفعل بعد انتهاء الحرب؟"

أنا: "أعود إلى مدينتي كركوك.. أنا مهندس في نفط الشمال. أزين جدران غرفتي بلوحات رينوار. إنه رسام فرنسي مولع حد الجنون بالألوان الزاهية هو يثير فيّ

الإحســـاس بالجمال والمرح. كان رينوار يرسم مع زميله مونيـــه على ضفاف السين أطلق عليه أحدهم لقب الفنان الذي رسم السعادة. في أوقات فراغي آخذ فرشاتي وأنثر ألواني على قماش اللوحة"

هـــي: "هـــل سترسم لوحاتك في شرفة البيت أم في الغابة؟"

أنـــا: "الأمـــر سيان. سأرسم جمال بلادي.. أو ربما فتيات كركوك الجميلات"

هي: "هل تقيم في التسعين؟"

أنا: "نعم هل زرت كركوك من قبل؟"

هي: "لا"

أنا (بدهشة): "كيف عرفت أنني أسكن في التسعين؟"

هي: "تحدثت مع عشرات الجرحى. وحفظت أسماء الحـــارات والقـــرى والمـــدن الصـــغيرة هل تجيد اللغة التركمانية؟"

أنا: "لا أعرف مفردات قليلة"

هي: تعلمتُ بعض العبارات. كتبها لي أحد الجرحى.

أنا: "أنت تمتلكين ذاكرة مدهشة ما اسمك؟"

هـــي: "عاليـــة، هل تنوي أن تكتب لي حين تلتحق بوحدتك من جديد؟"

أنا: "لم لا سأبعث إليك ببعض رسومي وتخطيطاتي

ضحكت وقالت: "أنا أحتفظ بالهدايا وأعتز بها. لدي تذكارات من الجنود صور.. مسبحات.. مناديل.. خواتم.. رسائل..

أنا: "هل تصلك رسائل كثيرة؟"

هـــي: "أجـــل.. معظمها رسائل امتنان. وبعضها لا يخلو من العاطفة"

هيمـــن الســـكون. ثم قالت عالية وهي تكسر غصناً صغيراً:

"هذه الحرب توقع في النفس غماً شديداً"

"وحافلة بالمفاجأت والمآسي

"ربمـــا لا يزال على قيد الحياة العشرات من الجنود ممن نظمت لهم شهادات وفاة من سنين عدة".

كـــانت ذراعـــي مشـــدودة إلى عنقي، وكنت أحاذر تحريكها. شعرتُ بألمٍ في مرفقي وبعد لحظة صمت قلت لها:

"لا بد أنك سمعت قصصاً كثيرةً من الجنود"

"عرفت مئات الجنود الذين كانوا يحبون الوطن أكثر من حبهم لحياتهم.. غرسوا زيتون دمائهم في تربتنا. أولئك الجنود الطيبون اندسوا في أعماق روحي.. نحن نفخر حين يسلموننا جراحهم المقدسة، وأعضاءهم التي شوهتها النيران.. فقدت عائلتي في القصف المدفعي، لكن العمل في المستشفى منحني رؤيا جديدة.. رأيت نماذج من البشر لم أكن أحلم بالعثور عليهم"

ألقت عالية الغصن المكسور من يدها. وتطلعت إلى عصفور صغير أزغب حط على حافة إحدى النوافذ.

سألتها: "لماذا يعاني ذلك العريف من الشحوب؟ هل هو مصاب باليرقان؟"

"إنه مصاب بفقر الدم. ظل ينزف ست ساعات في أرض المعركة قبل أن يتمكنوا من إخلائه.. لقد عاش بإعجوبة.. هناك أمور صعبة التفسير.

أرسلت عالية آهةً، وقلت لها:

"درسنا في الجامعة طبقات الأرض ومعادنها الثمينة، كنتُ أظن أن الأرض شيء جامد لا يستشعر شيئاً على الإطلاق، أما الآن فألصق أذني بالأرض وأستمع إلى نبضها. إنها كائن حي مثلي ومثلك.. وعندما تطأها أحذية الأعداء الثقيلة يبدأ قلبها بالخفقان الشديد وأسمعها تبكي بنشيج مر.

ثم ارتأت عالية أن تغير الموضوع، فقالت:

"كركوك مدينة جميلة وشفافة كم أتمنى زيارتها"

"بعد الحرب سوف يتاح لنا رؤية مدن جميلة آمنة. وسوف تمتلئ عربات القطار الذي يقل الجرحى في هذه الأيام بالشبان اليافعين والفتيات الجميلات" وبعد برهة قلت:

"عشقت هذه المدينة. وفي كل مرة أعبر فيها ذلك الجسر الحديدي، أفتح نافذة السيارة العسكرية الصغيرة وأتطلع إلى الزوارق والبواخر الراسية على الشاطئ، وأشاهد النوارس تتخاطف فوق أمواج الشط. هل ولدت هنا، في هذه المدينة"

هي (بأسى): (نعم في أحد أحيائها القديمة)

أنا: "في إحدى الروايات يدفن أحدهم وجهه في الطين ويقول لزميله: ما أروع رائحة الأرض إنها تذكرني برائحة زوجتي إثر خروجها من الحمام..

هي: "أنت شاب رائع.. هل تقرأ روايات الحرب؟ إنها روايات مثيرة للشجن.. هل تفكر في العودة إلى عملك؟"

أنا: "الحرب لن تستمر دهراً طويلاً، ولا بد أن أعود إلى عملي.. سأعود إلى بيتي وزوجتي.. وسأحمل ابني

ـلى ساعدي وأسير.. وفي المساء سأطل من شرفتي وأرى الشوارع المزدحمة بالسيارات والناس الفرحين.. أشم عبق الأزهار في حديقة المنزل.. سيرحلني الطبيب بعد يومين".

"سوف نحجز لك مقعداً في القطار.. قطار الجرحى"

"هناك في القطار. سوف أتحدث مع زملائي الضباط والجنود.. وربما تكون أحاديثنا شيقة.. سنفكر بأولئك الجنود الذين غرسوا زيتون دمائهم على الحدود.. وعندما أصل مدينتي سأجد فرشاتي ولوحة الألوان بانتظاري ومثل رينوار سأرسم بعض الورود وكثيراً من الورود.

الكوت 1986

النار الزرقاء

صباح شتائي غائم من صباحات شباط. الشمس تضع وشاحاً أبيض على وجهها الجميل الوقت الساعة السابعة والنصف. وصل خالد إلى كليته. ذهب مباشرةً إلى دولابه الصغير في ذلك الرواق الطويل، شبه المعتم. علّق صدريته البيضاء، النظيفة، ووضع كتبه الطبية الثقيلة سوّى شعره الأسود المجعد بأصابعه وراح يبحث عن زميلته ذات الأصابع الرقيقة الناعمة.

قضى عطلته الربيعية في قريته الصغيرة، عشرة كيلو مترات شمال النعمانية. في هذه القرية ولد خالد، ومذ كان صغيراً، غضاً، ألف المناظر اليومية للحياة الريفية: النساء الريفيات يرزحن تحت ثقل حزم من الحشائش يحملنها على ظهورهن، الجداجد تغني في الحقول، الفلاحون يشقون النزع بمساحيهم، العرق يتصبب من جباههم المتغضنة، أثوابهم الطويلة التصقت بظهورهم،

البخار الشبيه بضباب الصباح يتصاعد من إبريق الشاي الموضوع على كومة حطب.

كانت جالسةً في آخر النادي، تنظر من خلال ألواح الزجاج المطلة على الممشى الأسمنتي. فتاة في الخامسة والعشرين، جميلة الملامح. ذات شعر كستنائي غزير تتركه مرسلاً عندما لا تكون في قاعات الدراسة أو الردهات. شعرها يضفي عليها مزيداً من الأنوثة والرقة.

حياها وجلس قبالتها، راح يغرقها بنظراته الملتهبة. كانت قد شاهدته وهو يجتاز الباب الحديد، حاملاً كتبه وصدريته البيضاء. المشية المسرعة الجادة ذاتها.

الآن نجلاء ترتدي بلوزة جديدة، بلوزة محاكة، نقشت عليها ثمرة أناناس صفراء كبيرة وورقتين خضراوين، بدت في غاية الهدوء والاطمئنان خالد يحب الفتيات الهادئات الدافئات.

قالت بعد هنيهة:

-المكان هادئ جداً، أليس كذلك؟

وضع خالد مرفقيه على المنضدة وقال:

-بعد قليل سوف يسمعوننا الموسيقى العذبة. جميل أن يسمع المرء الموسيقى في مكان هادئ. وبخاصة بحضور امرأة جميلة دافئة.

ابتسمت نجلاء وقالت:

-قرأت ذات مرة أن من المستحسن إسماع الطفل الصغير شيئاً من الموسيقى في الشهور الأولى من عمره.

-أنا استمتعتُ بأعذب الأصوات الطبيعية. كنت أسرح في البستان، صبياً، تستوقفني زقزقات العصافير، وتوقظ في قلبي أجمل الرغبات حين تكونين في قلب البستان، تكون رغباتك كلها قد استيقظت وأحاطت بك. في خلال العطلة الربيعية تمشيت في البساتين، ورأيت نيران الخشب والفلاحين المقرفصين قربها يستدفئون، تملكني إحساس عارم لا مثيل له.. لعله الإحساس بالبراءةِ أو ربما الإحساس بالجمال.. عزيزتي، في صباي كنتُ أتسلق جذوع الأشجار، ولذا كانت دشداشتي ممزقة على الدوام. وها هي ذي الأعوام قد طارت مخلفة وراءها الذكريات الحلوة.. لكن لا تزال تتردد في أذنيّ أصوات العنادل، والعصافير، وطنين النحل، واليعاسيب الحمر ترافقني إلى البساتين. في الصيف تمتلئ الحقول والبساتين باليعاسيب والحشرات.. وأنا عائد إلى المنزل برفقة الفلاحين المسربلين بالتعب.

-في طفولتي كنت أتأمل الشمس تسطعِ فوق النهر. وتنعكس أشعتها على جدران المنازل، راسمةً زخارف من الأمواج الذهبية، في الصيف أسمع إصطفاق المجاذيف في النهر. وأشاهد الأسماك اللامعة في شباك الصيادين.

حـــركت نجـــلاء الملعقة الصغيرة في كوب الشاي الفارغ الموضوع على المنضدة وقالت من خلال أسنانها البيض البراقة:

-شــــاهدتك، وأنــــت تجتاز باب الحديد. نفس المشية الحازمة، مشية جندي ذاهب إلى المعركة.

-حقــــاً؟ عــــلى أية حال. المشية الحازمة ضرورية للطبيب الناجح.

تــــأمل خــــالد أصابع زميلته الرفيعة الناعمة وأردف قائلاً:

-من يعتقد أن صاحبة هذه الأصابع الرقيقة الشبيهة بأصابع عازفة بيانو سوف تضمد جراح المرضى وتثبت الكايــــنولات) فــــي أوردةِ النسوة اللاتي ينتظرن الوليد. يا لأصــــابعنا العجيــــبة! مرةً نمسح بها على شعور الأطفال الحلوين ومرةً نمسك بها المشرط".

الــنادي شــبه فارغ، العمال يجهزون طعام الفطور والشاي، أحدهم يرفع أكواب الشاي من أمام ثلاثة طلاب جلسوا في الناحية اليسرى من النادي

-والــــدي ووالدتــــي سافرا إلى (الحبانية) وبقيت مع أخــــتي الصــــغرى. ألحــــا علي بالذهاب والتمتع بمناظر الــــبحيرة الــــبهية. قــــلت لهــــا: يكفيني أن أظل في البيت

وأتصفح المجلات المصوّرة وأنشغل بالحياكة. حكت هذه البلوزة، جميلة أليس كذلك؟

-نعم إنها جميلة جداً.. أما أنا فزرت صديقاً لي في الكوت، وشاهدت السدة الأسماك تتقافز وتطير خارجة من البوابات. سمك الكوت لذيذ جداً.

-تمنيت أن تتصل بي هاتفياً. شعرت بالوحشة والعزلة. كان منزلنا مثل سجن رهيب. في الأول ظننت أن البقاء في المنزل يريح الأعصاب.. لكنني إكتشفت العكس تماماً. كنت أتمنى أن أسمع منك أنك كنت تحلم بي في بيتكم الصغير وسط الحقول والبساتين.

-لم أحلم بك في هذه العطلة الربيعية فقط، كنت أحلم بك في سنوات طويلة.. حين كنت أطارد طيور (الدراج) في أحراش الحلفاء.. في الربيع كنت أطارد الفراشات المبرقشة.

-هل كنت تحتفظ بها؟ في طفولتي كنت أحتفظ بالأسماك الصغيرة.. لكنها سرعان ما تموت وتطفو على سطح الماء.

-احتفظت بعشرات الفراشات الملونة. عالم الفراشات يا نجلاء رائع وغريب.. لم أعثر على فراشتين متشابهتين.

-عثرت قبل عامين على كتاب عن حوض الأمزون في مكتبة والدي. إنه مولع بقراءة كتب الرحلات. ذكر المؤلف فيه أن هذه البقعة من العالم تعج بالآلاف المؤلفة من الفراشات الجميلة.. أجمل الفراشات في العالم فراشات الأمزون..

-يخيل لي، غالباً، أني رأيتك وأحببتك من زمن بعيد، عندما كنتُ أنام تحت شجرة التوت القريبة من دارنا.. كان التوت الأحمر، الحلو المذاق، يسقط على رأسي وفي حضني عندما تهب الريح.. تخيلي يا نجلاء، غلام صغير يرتدي دشداشة مقلمة ينام تحت شجرة توت ويحلم.. هذا الغلام الصغير جالس الآن أمامك يتفسلف.

-هل تتمنى أن تتخرج وتعود إلى قريتك؟

-أجل. أريد أن أصطحبك معي. سأقول لأترابي: هذه هي الفتاة التي كنتُ أراها في أحلامي. كانت تجلس بجانبي في قطار خالٍ يمضي بعيداً. كنت أرى قطارات كثيرة لا حصر لها، وكانت رحلاتها لا نهائية.

-هل سنعيش في الريف؟ أغلب الأطباء يكرهون الحياة في المناطق النائية.

-لماذا أكرهه أنا؟ أنا إنسان ريفي. لماذا يسمونها بالمناطق النائية؟ ألأنها بعيدة عن العاصمة؟ وهل العواصم هي المدن الوحيدة في العالم التي تنبض بالحياة؟ أم أنه لا توجد في الريف قاعات موسيقى ومتاحف ودور

سينما؟ لست بحاجة إلى هذه كلها. الطبيعة هي المتحف والكاليري والسينما.

-يقول أركادي فيدلر: الفراشات كالأطفال، إنها لا تملك أسلحة تدافع بها عن نفسها.

-ما أن يمسك المرء بالفراشة بين أصابعه حتى تتهشم أجنحتها وتفقد قدرتها على الطيران.

-الأطفال أيضاً، ليس في وسعهم أن يفعلوا شيئاً إذا أغارت عليهم الطائرات الهمجية وراحت تقذفهم بالقنابل، الأطفال لا يملكون أسلحة.

-الحروب تهشم فينا كل المرايا الجميلة.

هيمن صمت قصير ثم قالت نجلاء:

-قبل قليل قلت بأنك كنت تحلم بقطار خال يأخذك بعيداً.. أتخيلك الآن جالساً على حجر صغير، تلوح للقطار الذي مرق مسرعاً وتلاشى خلف البساتين.. أتخيلك تنظر إلى قضبان السكة الممتدة إلى البعيد تسطع تحت وهج الشمس.

-عندما كان إبريق الشاي يغلي على كومة الحطب، كنت أخاطب أمي قائلاً: هو ذا القطار بدأ يصفر وينفث بخاره.

نهـض خـالد وجلب كوبين من الشاي.. لاحت له نجـلاء أكثر عذوبةً من المعتاد.. إنحنت نجلاء والتقطت قرطها الأخضر الذي سقط على الأرض.

-كن صريحاً، هل أحببتني بقلبك وعقلك؟

وكالعادة تملص خالد من الإجابة لكنه قال:

-سعيد هو الإنسان الذي يكتوي بنار الحب الزرقاء

-ولماذا النار الزرقاء.

-الأزرق رمـز للصـفاء والعذوبـة والشـفافية.. والأحـلام.. ألـم تلاحظـي يـا نجلاء أن أغلب جدران المستشفيات مطلية بالأزرق.

-أظـن أنـه يدخـل الهـدوء والـتفاؤل إلى أفئدة المرضى.. اسمع يا خالد، يخيل لي أنك تفتخر بريفيتك؟

-نعـم. بيـد أنـني لم أكن أريد أن أفلح التربة مثل والـدي، أو أساعده في تكريب النخل، أو أن أقدم البرسيم للأبقار في الحظيرة الواقعة خلف الدار. أنا أعتزٍ بريفيتي وبمهـنة عائلـتي.. لكنني أريد أن أكون مختلفاً. أريد أن أفـلح الجسد البشري. وأعرف أسراره وخفاياه. أريد أن أعـرف قوانيـنه كـم يؤلمني منظر أولئك الجنود الذين شوهتهم الحروب وتركت في أجسادهم شظاياها الحارقة.

-إنـك دائم الحديث عن الحروب؟ لا بد أنك قرأت روايات كثيرة عن الحرب، أما أنا فمولعة بالطبيعة وكتبها

وفنانيها، تعجبني رسوم شاغال.. في داخل منزله كانت الأبقاء تنتشر في كل الجهات.. كما تعجبني العفوية في رسوم هنري روسو.. كان يفتح نوافذ مرسمه ليلاً كي يجعل أشجار لوحته تتنفس بعد أن فرغت نجلاء من شرب كوبها، قالت:

-هل ستحفظني في واحدة من علبك الزجاجية مثل فراشات الطفولة؟

فرد خالد على الفور:

أنت فراشتي العراقية. لكنك فراشة مسلحة. سأكتب خطاباً إلى أركادي فيدلر وأقول له: عثرت في بغداد، المدينة الشرقية، التي ربما قرأت عنها في "ألف ليلة وليلة" على فراشة رائعة الحسن، تبز فراشات الأمزون جمالاً ورقة.. غير أنها فراشة تعرف كيف تدافع عن نفسها.. لا بل هي تدافع عن الآخرين أيضاً. إنها فراشة آدمية تعيش بين الناس الأحياء وليس للحفظ في المتاحف.

خالد يستعذب جمالها الأخاذ. وخيل إليه أن بوسعه أن يقضي سنوات طويلة جالساً في النادي متأملاً وجهها الساكن.

-أخشى، يا عزيزي، أن تحرقني النار الزرقاء.. أريد تطهرني نار الحب الزرقاء.. هاتان الكلمتان تقشتا في ذهني.. والدي يريدني أن أبقى في بغداد وتكون لي عيادة خاصة، أي بعبارة أخرى سأصبح مثل مئات

الأطـــباء الآخـــرين طرازاً نمطياً، مكرراً.. أجمع النقود وأنفقها على الفساتين والعطور وأدوات الزينة.. مثل كل النساء الأخريات.

إنسدل شعرها المسرّح على كتفيها، وافتر ثغرها عن بسمة رقيقة، إنداح صوت فيروز:

كان عنا طاحون عَ نبع المي

قدامه الساحات مزروعة فيّ

وجدي كان يطحن للحي

قمح وسهريات

قالت نجلاء:

-هل تزور الأعظمية كثيراً؟ يروق لي أن أراك من نافذة غرفتي في الطابق العلوي.

ولم تمهله كي يجيب، فقد أضافت:

-بعـــد أفـــول الشمس أو ربما بعد التاسعة مساءً.. أخرج إلى شرفتي المطلة على الكورنيش وأفكر أنني بعد ســـنوات طويـــلة سأظل أتذكر هذا المنظر الليلي الساحر والأضـــواء المتوهجة في المنتزه القريب من منزلنا. قل لـــي، يا خالد، هل تجلس في شرفة حجرتك وتتطلع إلى مديـــنة الطـــب، وتقول مع نفسك إن كثيراً من الطلبة قد جلسوا في نفس مكانك هذا هم الآن أطباء مشهورون.

-عندما يكون الطقس ملائماً أجلس في الشرفة المطلة على ساحة (الجمهورية) وأنظر إلى تلك البناية العالية المطلة على النهر. أحلم أنني أنتقل من سرير إلى آخر في إحدى ردهاتها.. غالباً، أغفو على صوت الموسيقى والكتاب لمايزل في يدي.

-هل تغفو وأنت جالس في مقعدك؟

سألته نجلاء وهي تتلفت حواليها، إذ جلست طالبتان خلفهما وراحتا تتحدثان بصوت عال.

-نعم نعم. أسند رأسي على حافة النافذة وأمدد قدمي على حاجز الشرفة. شرعت السماء تنث مطراً ناعماً، أما خالد ونجلاء فلا زالا جالسين في نادي الكلية الطبية يرقبان مشهد العناق الأبدي بين السماء والأرض.

قالت نجلاء بفرح غامر:

-أتمنى أن أمد يدي لأستقبل حبات المطر وكأنني فقير يستعطي.

-هناك، في الريف، يمكنك أن تمدي كفيك لتستعطي حبات المطر.. وأن تفرحي من أعماقك لأنك تعيشين وسط الطبيعة، التي نستمد منها قوة الحياة الخلاقة.

إرتسمت ملامح الجد على وجه نجلاء وهي تقول:

-أخشى أن نفقد هذه الروح السامية.. أتمنى أن لا تؤثر فينا دوامة الحياة الرهيبة.

رد خالد:

-العقـول العظيمة لا تخشى التأثير.. النار الزرقاء سـتظل تلتهب.. قد يلوح التعب على وجهينا.. لكن الحب لن يغيب عن قلبينا النابضين..

غادرا النادي، قال خالد

-أسمع صفير قطار، وقعقعة عرباته على السكة.

ردت نجلاء:

-إنـك تحلم يا عزيزي. لا أظن أن بالإمكان سماع قطار البضائع من هنا.. إنه يمر بجسر (الصرافية)..

-حبيبـتي إني أسمعه بجلاء تام.. وأتخيله يمر قريباً مـن حقـل والـدي منطلقاً إلى جهة بعيدة.. بعيدة جداً.. وهـناك فـي إحـدى عرباته يجلس اثنان: رجل وامرأة يـنظران بعيـداً.. تـلوح في الأفق نار زرقاء.. القطار يمضي مسرعاً. لكن النار الزرقاء ما زالت بعيدة.

الكوت 1986

همسات جرح

سمع رنين الجرس. كان يجلس وحيداً إلى طاولته الخشبية. فوق الطاولة يستقر مصباح يرسل ضوءاً ساطعاً، أقلام جاف ورصاص، أوراق مسودات وأوراق بيض. قبل رنين الجرس بلحظات قلائل كان قد وضع المحرار في فمه. عرف منذ سنين عدة، أن أفضل لحظات الكتابة هي لحظات القلق والتوتر والخوف.

كانت حرارته ترتفع تدريجياً، كلما اقترب موعد الكتابة، وكأنه سجين ينتظر لحظة الحرية. بعد العاشرة مساءً، يجلس إلى طاولته، يطلق العنان لقلمه، ويدع مخيلته تسبح في عوالم مدهشة وغريبة جداً.

بعد أن يتناول وجبة عشائه الخفيفة، التي يشتريها من مطعم قريب من عمارته السكنية، يجلس إلى الطاولة. يهيئ أوراقه وأقلامه ومسوّداته، يضع علبة سكائره المفضلة ومنفضته قريباً منه، يهيء كأساً أنيقةً مترعةً

بعصير الفاكهة في الناحية اليسرى من الطاولة. وقبل أن يشرع بالكتابة، يضع المحرار تحت لسانه.. مع الفقرة الأولى يخرج المحرار من فمه ويضعه جانباً.

لملم أوراقه المكدسة على الطاولة، ورفع ورقةً بيضاء سقطت على الأرض، حين سمع رنين جرس الشقة. كانت ليلةً من ليالي الصيف المعتدلة، ومن نافذة شقته المشرعة يتسلل نسيم بارد منعش كانت تلك ليلة نادرة، فقد اعتاد الناس أن يعانوا من حرارة الصيف القاتلة.

تقع شقته المؤلفة من غرفتين في خارج الزيتون، لا يعرف لم سميّ بهذا الاسم، فشارعهم بأكمله وشققه السكنية بأسرها لا تحتوي على شجيرة زيتون واحدة. وهو لم يذقْ طعم الزيتون منذ أن انقطع عن احتساء الشراب بعد افتراقه عن شلة "القسم الداخلي النزقة، حيث جرت العادة أن يقدم لهم نادل الحانة صحون الزيتون المنقوع بالزيت مع صحون السلطة وقناني البيرة المثلجة.

من ذا الذي يقرع الجرس؟ من ذا الذي سيحرمه من ألم الكتابة وعذابها؟ من ذا الذي يشد حصانه ويمنعه من الجري في قفار اللوعة ومروج اللذة؟ من ذا الذي سيحرمه من قلق وأوجاع هذه الليلة، المعتدلة، النادرة، من ليالي صيف بغداد؟

سار ببطء إلى باب الشقة حرك المفتاح في الباب. ثم أدار الأكرة وحين فتح باب الشقة، تنشق في الحال عطراً لذيذاً. نظرتْ إليه باستغراب. ما هذا الذي يضعه في فمه. إنه ليس سيكارة بالتأكيد.

عندما نهض من الكرسي الوثير بتؤدة ومضى عبر الرواق المفروش بالسجاد ليفتح باب الشقة، لم يكن ليعرف إنه ما زال يحتفظ بالمحرار في فمه.

نظـــرت في عينيه ملياً، بتساؤل واضح، وريبة، ما معـــنى أن يضــــع هــذا الرجل محراراً في فمه. هل هو مصاب بالحمى؟

انتـــبه إلى أنه يقبض على المحرار بين أسنانه. رفع يده اليمنى وأخرجه من فمه.

تصـــنعت الأدب والـــلياقة نوعاً وهي تقول هامسةً بغـــنج: "هل أدخل؟" لم يقلْ كلمة. أسندتْ ذراعها النحيلة الســـمراء إلى إطار الباب الخشبي. كانت ترتدي قميصاً خفيفـــاً، وردي الـــلون، مـــن الحرير الصناعي، بكمين قصيرين، يشق عن نهدين مغامرين. شاهد أزرار قميصها الجميـــلة، الشـــبيهة بفصـــوص أحجار كريمة. من فتحة القميـــص العـــليا، المثلـــثة، رأى جلدها الناعم، الأسمر كالشوكولاته.

إتكـــأ بكتفه اليمنى على الباب المفتوح. المحرار في كفه اليمنى.

قال لها دون أن يجعل تعبيراً معيناً يتسلل إلى ملامح وجهـــه: "ما الخطب؟ ما سر زيارتك المفاجئة هذه؟ أنا لا أكاد أصدق"

كـــل يوم، تجلس على كرسيها الهزاز، في الشرفة، تـــنظر إلى الأســـفل. فـــي نفس الوقت، تقريباً، يعود من عمله، يركن سيارته في مرأب قريب من المبنى، يترجل مـــن ســـيارته، حـــاملاً حقيبـــته السوداء.. يعبر الشارع مســـرعاً، تتطاير خصلات ناصيته التي خالطها الشيب. يـــرفع يـــده إلى رأسه. يلتفت يميناً وشمالاً ثم حين يصل الرصيف، الذي تتوسطه "بلوكات" ثمانية الشكل مزروعة بشجيرات خضر، يختفي عن الأنظار.

تنتظر عودته من العمل، كل يوم، تقريباً وحين يصل مدخل المبنى. تحسب أمل الدقائق التي يستغرقها للوصول إلى شـــقته فـــي الطابق الرابع. وصل الآن، إلى المصعد الكهـــربائي. ضـــغط عـــلى الزر –رفع رأسه إلى لوحة الأرقام التي تشير إلى الطابق الذي بلغة المصعد. ينتظر قـــليلاً. يـــلقي نظرات عابرة على عدد من ساكني المبنى ممـــن ينـــتظرون المصعد. قد يتأمل فتاة جميلة أو سيدة

جذابة المظهر. يضحك مع أحد معارفه. يجيب باقتضاب على سؤال عابر.

يصل المصعد إلى الطابق الرابع- يفتح الباب.. يتمشى قليلاً.. ينعطف يساراً ثم يضع المفتاح في باب شقته ويدخل.

تترك كرسيها الهزاز يتأرجح في الشرفة. ترتمي على سريرها. الملاءة البيضاء مجعدة على الدوام. هي تكره ملاءات الأسرة. وتكره ستائر الغرف الداكنة- صديقتها هند تزوجت تريح أمل رأسها على الوسادة. ساعات العصر ثقيلة الوطأ. هي لا تنام القيلولة. هدوء العمارة والشارع وربما المدينة بأكملها يزيد من وحشتها. تنظر عبر نافذة غرفتها المطلة على الشارع الرئيس.. تتنهد بعمق ويلوح الدمع في عينيها.

رمشت عيناها البنيتان، انتبه إلى حاجبيها الجميلين ورقص شعرها الأسود الفاحم وهي تقول بإغراء: "ولم لا تصدق؟" ثم صمتت لحظة وقالت بنبرة حزينة ألفها من قبل: "هل هذا محظور؟" وقبل أن تسمع جوابه هتفت قائلةً: "أنا بحاجة إلى قرص مُسكن" حين قالت ذلك أنزلت ذراعها من إطار الباب فرأى أصابعها الطويلة النحيلة.

أجابها بدهشة: "قرص مُسكّن؟ هل صعدت كل هذه السلالم ومشيت كل هذه المنبسطات لتطلبي مني في هذه

الساعة من الليل قرصاً مُسكناً هل هذا معقول يا آنسة أمل؟"

ضحكت ضحكةً صافيةً ثم قالت: "معقول أو لا معقول. هذا لا يعني شيئاً هل تدعني أدخل. أنا بحاجة للحديث معك"

تراجع خطوتين للوراء ليسمح لها بالدخول دخلت بتؤدة، بحذر. سارتْ على أطراف أصابعها. انتبه إليها، كانت ترتدي سروالاً من (الجينز) وفردتي حذاء قماشيتين ملونتين. شرعت تنقل بصرها، بفضول وحيدة، في أنحاء غرفته، مكتبة تعج بالكتب، بعضها موضوعة بترتيب ونظام، وبعضها الآخر مكدّس باضطراب قرب المكتبة طاولة صغيرة عليها مزهرية كريستال. وعلى الجدار المجاور للمكتبة ثمة عدد من اللوحات الفنية لرسامين مثل بيكاسو ومايتس وفراغونار.

سألته فجأةً: "هل لديك ضيوف؟ أنا أعرف أنك لا تستقبل أحداً في شقتك. أجريتُ تحريات كاملة عنك. أنت من مواليد عام 1955. محافظة البصرة. أعزب الولد الوحيد في عائلة لها ست فتيات"

قال لها مازحاً: "إجلسي أولاً. وأخبريني من أينَ جمعتِ عني كل هذه المعلومات؟"

نظرت عبر النافذة المفتوحة، إلى العتمة في الخارج، رأت كرات مصابيح الشوارعِ المتألقة في الأسفل. تنشقت النسـيم البارد، أرسلت آهةً، رفعت شعرها بأصابع كفها اليمنى.

قـالت: "يـا له من منظر ساحر.. بغداد جميلة في الليل، كتاب مفتوح. نسيم بارد وزائرة فضولية".

وضـع يـده عـلى كتفها. كانت ما تزال تنظر إلى الـبعيد. وترفع خصلات شعرها المتدلية على عنقها من الخلف. دعاها للجلوس.

جلست على كنبةٍ قريبة من طاولة الكتابة.

شبكت أصابع كفيها وركزت بصرها في وجهه وهي تقول:

"قـبل أن أجيـب على سؤالك.. قل لي، بالله عليك، كيف تطيق هذه الوحدة؟"

نهـض جاب علبة السكائر وجلس على كرسي وثير قبالة الكنبة التي جلستْ عليها زائرته الفضولية.

امـتدت يده إلى علبة السكائر وأشعل سيكارةً وراح يدخـن. وبعـد أن أخذ نفساً عميقاً قال لها: "لا أدري أنا أفضـل العيـش ليلاً مع الكتب.. أو بالأحرى مع الأفكار والأخيلة، فهي تعوضني عن البشر

اعتدلت في جلستها كان يدخن بصمت راحت تتأمله.

هل هذا الرجل الجالس أمامها إنسان عاقل أنفق ستة عشـــر عاماً وهو يمارس الطب. يجلس كل ليلة مع كتبه وأوراقه.. هل الكتب هي سلواه الوحيدة؟ لا بد أن الأجور الــتي يتقاضــاها من المستشفى جيدة، وإلا كيف استطاع امــتلاك شــقة كهذه، مع أثاث بسيط وعدد من اللوحات الفــنية. هل هو بحاجة إلى كل هذه الكتب قدر حاجته إلى زوجــة شــابة، مثلي، تزيل عنه غبار التعب.. سأجعله يذهــب إلى الحمام حال عودته من المستشفى.. سأغسل ملابســه يومياً.. سأرشه بالعطر.. سأجعله يتنشق شعري حــال خــروجي مــن الحمام.. سأجعله يحلم بأنه يدخل الفردوس..

بعد أن أطفأ عقب سيكارته قال: والآن قولي أولاً، لم أتيت فعلاً؟ ومن أين جمعت عني كل هذه المعلومات".

نكست رأسها نظرت إلى سجاد الغرفة.

الوقت صيف. وهذا الرجل نصف المجنون ما زالت ســجادة غرفــته مفروشة أنا طويت سجادتي منذ ما يزيد عــلى الشــهرين. فــي الليالي المعتدلة، يحلو لي أن أنام عاريــة فوق بلاط شقتي.. أترك نوافذ غرفتي مفتوحة.. آخذ حبة الفاليوم وأنام.

سألها: "هيا آنستي، لم تقولي حاجتك. أأنت بحاجة إلى قرص مُسكن فعلاً أم إلى التحدث معي؟"

أجابت بسرعة وبدون تفكير: "الاثنين معاً"

لم تنظرين إلي بهذه الطريقة. أنت تحتاجين إلى أقراص مهدئة للألم، وأنا أحتاج إلى قلق وتوتر ونصف درجة مئوية من الحرارة.

قامت من الكنبة وجعلت تتصفح عدداً من الكتب. جذبتها بعض العناوين الطنانة والأغلفة الأنيقة. سألته عن هذا الكتاب وذاك. سحبت كتاباً وقرأت العنوان: "العرس الوحشي قالت: "ما المقصود بالعرس الوحشي؟"

أجابها: "أنا لم أقرأ هذا الكتاب. لكن يبدو لي أنها رواية حول العنف والقسوة"

حلت فترة صمت. قال لها: "حسناً، آنستي.. لا يمكن استقبال الضيف بهذه الطريقة.. سأعود حالاً..

ذهب إلى المطبخ. أعد القهوة عاد بالصينية وفيها كوبان فخاريان مليئان بالقهوة. وضع الصينية على طاولة مستطيلة.

رفع الكوب إلى شفتيه وراح يرتشف قهوته على مهل. قال لها ضاحكاً: "أفسدت علي ليلتي. أجلس كل ليلة كي أكتب..

كـــانت جالسة في نفس موضعها السابق تقريباً، لفت ساقاً على ساق، بين أصابعها مزهرية الكريستال. قالت له دون أن تحدق بوجهه.

"أعجبتـــني هـــذه المزهرية. هل اشتريتها من هنا؟ كريســتالها مـــن النوع الفاخر وضع كوب القهوة على المنضدة. وضعت هي المزهرية في حضنها. رفعت كوب قهوتها.

أجابها: "هذه المزهرية هدية من طالبة لبنانية درست معي في الكلية قدمتها لي، قبيل تخرجنا، مع رسالة مفعمة بالمشاعر الجياشة"

راحـــت تتأمله بريبة وحنق ثم قالت: "أكانت مغرمةً بك؟"

"لا أدري. فـــي الشـــباب تكون مشاعرنا قوية لكنها سرعان ما تهجع وتنام أو ربما تموت"

شرد ذهنها عنه

ويحـــك، دكتور، ما هذا الذي تقوله؟ كيف يمكن أن تهجـــع المشـــاعر القوية وكيف تموت.. مالكَ تنظر إلي هكـــذا؟ أأنت حجر أصم؟ أي صنف من البشر أنتم معشر الأطـــباء؟ لـــم لا تسمعون دقات قلوبنا المفجوعة. لم لا تســـمعون نبضـــات قلوبنا العاشقة. كلكم دجالون كلكم لا

تـبالون بشـيء على الإطلاق. نتحول نحن بني آدم إلى أرقام وخطوط بيانية وصور بالسونار أتحداكم إن صنعتم جهـاز سـونار يصورّ أوجاعنا نحن المعذبون. يصورّ آلامـنا نحن النساء الوحيدات يصور هيامنا نحن العشاق المتيمين. كل يوم أنتظر عودتك من المستشفى، أتطلع من شـرفة شـقتي، أرقبك وأنت تترجل من سيارتك، تحمل حقيبـتك السـوداء، أما أنت فتحدثني الآن عن المشاعر القوية التي تهجع وتموت.

جـرعت نصـف كوبها. قالت وهي ما تزال تضع المزهرية في حضنها: "المزهرية خالية من الأزهار. هل أهدتها لك صديقتك بدون أزهار؟"

قـام مـن مكانه.. مشى إلى النافذة وراح ينظر إلى الأفق البعيد وكأنه يستعيد الذكريات. أجابها: "لا أدري، يا عزيزتي.. فقد مضى على ذلك ما يزيد على خمسة عشر عاماً"

جلس ثانيةً على الكرسي الوثير قبالة زائرته الشابة. عـرفها منذ سنتين كانت تظهر في إعلانات التلفاز.. فتاة إعـلان جميـلة الملامح. مكتنزة الشفتين في الأستوديو يضـعون المسـاحيق فـوق بشـرتها، يصبغون شفتيها بالأحمر..

يسلطون عليها الأضواء الساطعة.. تظهر دوماً مثل أميرة جميلة سعيدة الحظ لكنها في الواقع كانت تعاني من نوبات كآبة أدخلها ردهته في الطابق الخامس مرتين. كانت تأتي إلى غرفته. تجلس على كرسي قريب، وتحكي له عن حياتها.. هي تنحدر من عائلة ثرية جداً تقيم في قصر واسع. ذنبها الوحيد أنها أحبت أحبت المغامرة.. عملت فتاة إعلان.. ربما من أجل الشهرة.. حب الشهرة غريزة أيضاً، أليس كذلك؟-ما ذنبها أن تعاني كل هذه الوحدة واليأس والمرارة. هكذا قالت له. وأسندت رأسها على مكتبه.

هي فتاة إعلان شهيرة، تمتلك سيارة حديثة وشقة في الطابق الأول في شارع الزيتون. وما هو إلا طبيبها المعالج، وجارها الساكن في الطابق الرابع هي تستلقي عارية على بلاط الشقة كي تحلم بالسعادة وهو يعدو بجواده الأبيض الجريح في قفار الألم وصحارى الظمأ.

قامت وجعلت تتأمل لوحة "الأرجوحة" لفراغونار أطالت التحديق فيها ومررت سبابتها الرشيقة على ساق الفتاة الجالسة في الأرجوحة المرتفعة في الهواء، خلب لبها فستان الفتاة المطرز الحواشي.. الأرجوحة في غابة خضراء، ترتفع وتهبط، الكل سعداء، يضحكون ضحكات صافية.

وضـــعت راحتها على نهدها الأيسر، وتنهدت تنهيدة عميقـــة. عـــادت إلى الكنـــبة حيـــث تـــركت مزهـــرية الكريســـتال.. تـــبدلت ملامح وجهها تماماً. وفجأةً نكست رأســـها وشرعت تبكي بحرقة.. نهض من مكانه، جلس لصقها، وضع يده على كتفها النحيلة.

"مـــا بـــك آنستي، منذ قليل كنتِ تتحدثين عن الغرام والأزهار والكريستال هل أنت متعبة؟"

واصـــلت نشيجها. غطت وجهها براحتيها. شرعت تمسّت دموعها الحارة وتفرك أنفها الدقيق.. لاحت حبيبات العرق على جبينها.. وأمسى حاجباها الجميلان نديين.

"إهدأي يا أمل. لا يجدر بك أن تذرفي الدمع. طلبت منك مرات كثيرة أن تتحلي بالهدوء وأن تبتعدي عن كل ما يقلقك..

اســـتولى عـــليها غضب عارم. هبت واقفة، رفعت مزهـــرية الكريســـتال ورمـــتها بقوّة على بلاط الشقة.. تكسرتْ المزهرية إلى شظايا صغيرة، تطايرتْ وتناثرت فـــي أنحـــاء غرفـــته، وربما سقط بعض منها على كتبه ومجلداته المركونة في مكتبته.. كان لصوت تكسرها أثر السكين فوق جلده.

قـــالت أمـــل محنقة: "كيف لا أقلق، دكتور، كيف لا أقلق.

لزم الصمت. بعد قليل هدأت أمل ورفعت إليه عينين طافحتين بالحزن.

قالت باعتذار: "أنا متأسفة.. أنا زائرة خطيرة.. أفسدت عليك ليلتك..

بقيت جالسة أمامه. تكفكف آثار دموعها. وتهدئ نفسها.

شرد ذهنها عنه ثانيةً.

أنا فعلاً إنسانة غريبة.. أي زائر هذا يشرب قهوة مضيفه ويكسر مزهريته. أنا، دكتور، لم آت لآخذ قرصاً مسكناً. ولا حبوب الفاليوم.

أنا امرأة يائسة. حياتي خاوية، فارغة. أنا مثل مزهريتك الخالية من الورود. أنا، دكتور، ناعمة وشفافة مثل كريستال مزهريتك.. لكنني ضائعة. أنا امرأة تفيض حباً. لكن ما من أحد يشعر بي. ضع سماعتك الطبية هنا (لمستْ نهدها الأيسر). أسمع دقات قلبي. اسمع همسات قلبي. قلبي يهمس لك. هل تسمعه.. أنا امرأة منخورة من الداخل.. مهمشة.. ما بالك تنظر إليّ (رفعت بصرها إليه). هيا، قم وضع سماعتك الطبية هنا، هنا، في هذا الموضع (لمستْ نهدها الأيسر ثانيةً).. أنت إنسان بارد.. أنت مجر بارد (نظرت إليه باحتقار) تقضي ليلتك تسوّد الصفحات وتضع كالمعتوه المحرار في فمك.. أنا أعاني

المرارة.. لا أستطيع الخلود إلى الراحة.. سيقودني اليأس إلى الجنون.

قامت من الكنبة وجثت عند ركبتيه قائلة بأسى: "دكتور، أنا غزالة جريحة. كان والدي يسميني غزالة في طفولتي.. أما الآن فأنا غزالة جريحة لا يلتفت إليها أحد. أنقذني. هل ستنقذني؟ أنا لا أستطيع النوم وحيدةً في شقتي.. لا أطيق الحياة.. خذني من هنا.. أرجوك.. أرجوك..

داعبت شعرها الأسود الفاحم.. دفنت وجهها بين ركبتيه. أمسك بكتفيها النحيلتين.

عائلتي تخلت عني.. طردوني من الجنة. وزميلتي هند تزوجت مخرجاً مسرحياً. أما أنا فأعيش وحيدة.. ويستولي عليّ حزن ثقيل كالأهرامات.

هدأ من روعها. نهضت ثانيةً وجلست على الكنبة. بعد قليل نهضت وشرعت تتصفح مسوّداته، ثم أخذت مجموعةً من الأوراق التي كتبها في الأيام الماضية وعادت لتجلس على الكنبة.

تمنيت أن أزورك مرات كثيرة.. لكني كنت أجد ما يشغلني. أنت طبيب أخصائي وأنا إحدى مريضاتك المشاكسات.. أتيت لأتحدث معك فكسرت مزهريتك وصرخت بوجهك وربما أسأت الأدب.. لكن.. لا بأس.

فأنا امرأة مهمومة، قلقة، مسهدة، مثل أغلب بنات جيلي.. ما أتيت لآخذ منك قرصاً مهدئاً للآلام. أنا أعرف أنك لا تحتفظ معك بأقراص مسكنة أو مهدئة كيلا تجعل ساكني العمـــارة يطلــبون منك الدواء كل مرة. لكنني أفلحت بأن أجعلك تلمس جرحي.. ضع أذنك هنا (تطلعت إليه بأسى ووضــعت راحــتها تحت نهدها الأيسر مباشرة) واسمعْ همســاته. إسمع همسات جرحي.. أرجوك لا تكتب أشياء خياليــة لا أســاس لهــا فــي الواقع.. اكتب عنا، نحن المهمومين، المنخورين من الداخل، الضائعين بين الرماد المــتحركة.. الذيــن نوشــك على الغرق والغوص إلى الأســفل.. إلى الأسفل. الجرح غير الملتئم لا ينبض فقط، بــل هــو يهمــس أيضاً، يهمس أيضاً.. وغالباً ما يجأر، يزأر، يصرخ، مثلما صرخ جرحي هذه الليلة في شقتك.

قــامت لــتغادر.. ســلمته المسودات. داعب عنقها النحيف الأسمر كالشوكولاته. رافقها إلى باب الشقة. وقبل أن تصــافحه قالت باعتذار: "يا لي من زائرة غريبة. غداً سأشتري لك مزهرية أخرى.. لا يمكننا أن نهشم ذكريات الماضي..

هــز رأســه دون أن يفه بشيء. دارت على عقبيها وشرعت تهبط السلالم بلا صوت.

أغلق باب شقته بالمفتاح. تضوع عطرها في غرفته. كيف فاته أن يتنشق العطر طوال فترة مكوثها معه.

عـــادِ إلى طاولـــته. وضع المحرار في فمه. وبقي جالساً فترةً طويلة أمام أوراقه وأقلامه. كانت حرارته قد ازدادت نصف درجة مئوية لكنه لم يستطعْ أن يكتب تلك الليـــلة ســوى كلمـــتين في أعلى ورقته البيضاء. كلمتين بارزتين بحروف كبيرة واضحة: همسات جرح.

الكوت 1995

الرذاذ وحبات اللؤلؤ

دخلت غرفتي. ترفل بفستانها الأبيض. الغرفة دافئة. خلعتْ جاكتتها الصوفية الحمراء. بانت ذراعاها النحيفتان. فستانها الأبيض عديم الأكمام.

يزينه في الصدر، عند ملتقى نهديها الصغيرين، (بروش) لماع ذو شذرة وردية.

دنت السكرتيرة السمراء من مكتبي. سلمتني بطاقتها الوردية. انتظرتْ واقفةً. لم تقلْ كلمة. قرأتُ المعلومات المدونة في البطاقة: الاسم، العمر، العنوان، تاريخ آخر زيارة. رفعتُ بصري إلى السكرتيرة. أومأتْ لي بيديها علامة الانتهاء. تراجعتْ خطوتين إلى الوراء. دارتْ على كعبي حذاءيها الأسودين الواطئين. انصرفت بهدوء.

فتحت الشابة حقيبتها الجلدية. أخرجت مرآةً صغيرة. راحت تتأمل أسنانها. مددت لسانها فوق أسنانها الأمامية العليا. أعادتْ المرآة إلى الحقيبة واعتدلتْ في جلستها.

تضـــوّع عطــرها في حجرتي الصغيرة الواقعة في عمارة تطل على دجلة.

تأملـــتها. شابة في العشرين. بشرة بيضاء، صافية. وجـــه باسم. مخلوق سماوي، آتٍ من كوكب آخر. قادرة عـــلى إثـــارة الدهشة والخيال. ذراعان شفافتان كالبلور. عينان واسعتان، سوداوان، ضاحكتان. حين تراهما تشعر أنك رأيت العالم الواسع، الرحب.

جلست على كرسي الفحص المائل قليلاً إلى الخلف.

ســـألتها: "أنتِ، إذاً، لم تجلسي على هذا الكرسي منذ عشرة أعوام تقريباً، أليس كذلك؟"

أجـــابت: "بلى. آخر مرة زرت فيها طبيب الأسنان كنت في الثانية عشرة.

قـــلت وأنا أتأمل ملامح وجهها: حتماً قال لك طبيب الأسنان، آنذاك، أنك تودعين الطفولة. ففي الثانية عشرة، تقريباً، نودع الطفولة.

ضحكت. ردت خصلة من شعرها إلى الوراء.

سألتني فجأةً: "دكتور، أتخرجت منذ أمد طويل؟"

أجبتها بحزن: "أجل. سنوات طويلة. تلقفتني الطرق الموحشة. محطات الانتظار والأنين.

نظـــرت فـــي بطاقتها الوردية ثانيةً وسألتها بصوت راعش: "ياسمين، أأنت متزوجة؟"

أجـــابت بصـــوت نـــاعم، ســـمعته بصعوبة بالغة: "لا"ابتســـمتْ ابتســـامةً طفيفةً وأكملت قولها: "إنني أدرس الباليه في روسيا".

قـــلت لهـــا مشجعاً: "عظيم! هذه مهنة شاقة. مهنتنا أيضاً شاقة وخطيرة.

قـــالت بلـــباقة وذكاء متقد: "أحببت الباليه منذ نعومةِ أظفـــاري. كـــنتُ أتدرب على ألعاب الجمناستك مذ كنتُ طالبةً في المتوسطة. ما مبرر حياتنا إذا لم نفعل ما نريد ونتمنى.

أدهشتني كلماتها. لزمت الصمت.

بعـــد قـــليل، قـــالت ياسمين: "سأسافر، دكتور، في غضـــون أســـبوع. أرجو أن تتمكن من معالجتي في أيام قلائل.

ابتسمت بأسى. تنهدت. لم أجب.

ساد صمت قصير. قالت: "أتسمح لي، أن أخلع حذاءيّ. إني لا أحب العلاج على هذا الكرسي. أحس بالضيق.

قمت من وراء مكتبي. جلست على كرسي دوّار، قريباً من كرسي الفحص.

قلت لها: "هذا غير ضروري. العلاج سيكون بلا ألم. أما إذا كانت هذه مشيئتك فلا بأس.

خلعت حذاءيها. شاهدت جوربيها الأبيضين. لفت ساقاً على ساق. وضعت قدمها اليمنى على قدمها اليسرى بصورة عمودية وكأنها تستعد للرقص.

انحنت قليلاً وردت حاشية فستانها الأبيض.

قلت لها: "ياسمين، ما كان يجدر بك أن تأتي إلى هنا. فهذا المكان ليس مرسماً بل هو عيادة طبية، وأنت لا تحتاجين إلى طبيب أسنان بل إلى رسام مثل ديغا. يخيل لي، من اليسير أن يتحول من يعالجك إلى رسام عظيم.

استلت ياسمين منديلاً زاهي الألوان من حقيبتها الجلدية الأنيقة.

"لماذا حضرة الطبيب؟"

"أصابعي لا تطاوعني للعمل في أفواه الجميلات. ينبثق السؤال في ذهني، الآن، هل الجمال خلق الفن أم

الفــن هــو الــذي خلق الجمال. أحياناً تهيمن قوة السحر والأبهار على كل أحاسيسي الأخرى.

مست أهداب عينيها السوداوين بسبابتها الوردية.

قالت: "ألا تجعلك قوة السحر تسرح في خيالك؟"

"بــلى. سرح ذهني في كل أرجاء الدنيا. تارةً أسرد لمــن يجلس على هذا الكرسي حكايةً من نسيج خيالي. أو أسطورة قرأتها. كان أستاذي في الكلية يدعوني بــ شارد الذهــن. أتخيلك، الآن، راقصة باليه شهيرة ترتدين غلالة ورديــة وخفيــن ورديين. أما أنا فأسترخي على كرسي الظــلام. أنت تسبحين في النور المتوهج وأنا أغرق في الظلام الداجي.

أخــرجت حــبة هيــل من فمها وألقتها في المبصقة البيضاء. مسحت فمها بالمنديل الملوّن. أجالت بصرها في عيــادتي. نباتات الظل تزين النافذة المطلة على الشرفة. فجــأة نهضت. طوّحتْ شعرها الأسود إلى الوراء. مشتْ على أصابع قدميها كراقصة باليه حقيقية.

قالت وهي تومئ إلى نباتات الظل:

"هي لا تنال كفايتها من النور."

"هــي مثــلي تسكن في العتمة. أنا وهي بحاجة إلى النور.

"أتسمح لي أن آخذها إلى الشرفة؟"

هززتُ رأسي بالإيجاب.

فتحت باب الشرفة. انحنت ورفعت الأصص، الواحدة تلو الأخرى. أخذتها إلى الشرفة.

قالت: "هنا، في هذا الموقع، ستنال نباتاتك كفايتها من ضوء النهار. هي شبه ذابلة. في شقتي بموسكو، تنال نباتاتي كفايتها من ضوء النهار، رغم الثلوج والأمطار. وأن أنال كفايتي من دروس الرقص.

ارتأت ياسمين، بغتةً، أن تغير موقع إحدى الأصص، فأقعيتُ كي أساعدها. لكنني أحسستُ بألم حاد في أسفل ظهري. عبستُ وجهي، وزممتُ شفتيّ.

سألتني الشابة بدهشة: "ما بك، دكتور؟"

أجبتها وأنا أكتم الألم: "آلامٍ الفقرات. أعاني من آلام الفقرات منذ خمس سنوات تقريباً.

رفعت ياسمين النبتة ووضعتها في مكان آخر.

قالت: "هل أساعدك كي تنهض على قدميك؟"

أجبتها: "نعم.

عدت إلى الكرسي الدوّار. كان الألم قد بدأ يخف. قلتُ لها. "شكراً" ياسمين. بعد برهة أضفتُ قائلاً: "ألم

الفقرات يضايقني أحياناً. الآن، أعالج مرضاي وأنا جالس على هذا الكرسي.

عادت وجلست على كرسي الفحص.

تنهدت بارتياح. رحت أتأمل تقاسيم وجهها. هي ذي موناليزا مدينتي تجلس باسترخاء على كرسي الفحص. كم انتظرتك يا ياسمين. طوال عشرة أعوام كان باب حجرتي هــذه مــنفرجاً قليلاً. تخيلتك تدخلين عيادتي مثل شعاع فضــي، فيلامــس أضلاعي التي يعربد فيها الحزن. كم تمــنيت أن تضــرم فتاة مثلك النار في قلبي الذي شرع يشيخ.

بقيــت أتــأمل وجــه ياسمين الهادئ، الباسم. نسيت ســنواتي العجاف. نسيتُ الطرقِ الموحشة التي اختارتها أقدامي طوال أربعين سنة. نسيتُ الحربين الضروسين.

نســيت الماضي. نسيت الحاضر. نسيت المستقبل. نســيتُ كــل شيء. أصبح تأمل وجهها المليح هو الخلود بعيــنه. كــنتُ ســجين أيامي الكئيبة، الرمادية، الكالحة. وهــأنذا أغادر زنزانتي. إني أطير. روحي تطير. تطير إلى الفضــاء. "الجمــال يــنقذ العالم"(1). موناليزا مدينتي تنقذني من الألم، التعب، اللوعة. تنقذني من الملل والرتابة والهواجس والحزن الصحراوي. الجمال يجعلني أحلم. لا

---

(1) قول شهير لــ مشيكين بطل دويستويفسكي.

أدري، الآن، هل أنا فعلاً في عيادتي الخاصة المطلة على دجلة أم في مكان آخر من العالم. ربما أنا الآن في وادي الدوردون أو شلالات بيخال أو إحدى جزر اليونان.

شعرت بالراحة، غسلت كفي. أشعلت الضياء.

فتحت الشابة البيضاء البشرة فمها الوردي. بهرتني أسنانها البيض ولثتها الوردية. انتزعتُ دبابيس شعرها الواحدِ تلو الآخر. وضعتها على صينية أدواتي الطبية. تأملتُ خصلات شعرها الأسود كالليل. كان حريرياً مرسلاً. أخذتُ سرنجتي المعدنية الثلاثية. صرتُ أنثر الرذاذ. أصابعي الراعشة ترقص في غابة شعرها.

كم انتظرت أصابعي هذا الرذاذ آن لك أيتها الأصابع أن ترقصي في غابة شعر موناليزا، بعد أن رقصتِ طويلاً فوق حبات اللؤلؤ. الرذاذ يسّاقط مثل حبات الندى. الرذاذ يسّاقط على شعر موناليزا. ياسمين، الرذاذ يسّاقط كرقائق الثلج على أشجار البتولا وغابات التايغا. الحجرة دافئة. عزيزتي، لن يصيبك البرد. أنت سترحلين إلى روسيا حيث الصقيع يغطي كل شيء.. وأنا هنا أكتوي بنار الوحشة واليأس والقلق. ياسمين صدريتي البيضاء تنادي غلالتك الوردية. اقتربي مني. فلنرقص معاً تحت المطر الناعم. ولنتعطر معاً بشذى ربيع متأخر. ياسمين، ليتني رأيتك قبل الآن. ياسمين، أين كنتِ طوال

هذا الوقت. أربعون عاماً مرت من حياتي. أربعون ربيعاً تصرم بلا رجعة. انتظرتك طويلاً، حتى قبل أن أعرفك. ياسمين، من أين أتيت؟ أأنت خارجة من إحدى لوحات ديغا؟ هل نزلت من السماء؟ ياسمين، كم أنا مسرور برؤيتك. سأتطلع إلى نباتاتي يومياً. سأتذكر عطرك الرائع. سأتذكر قدميك النحيلتين تخطوان إلى الشرفة. سأتذكر غلالات راقصات الباليه، خفافهن، سيقانهن العاجية الرشيقة. سأتذكر مايا بليسيتسكايا[2]. سألفك بصدريتي الطبية وسنرقص معاً في "باليه من البياض"[3].

رأيت الشابة ذات الفستان الأبيض تفتح فمها الوردي. كانت عيناها مغمضتين والرذاذ يتساقط فوق حبات اللؤلؤ.

الكويت 1994.

---

(2) مايا بليسيتسكايا: راقصة باليه روسية شهيرة.

(3) وردت هذه الجملة في رواية "البحيرة" لـ كاواباتا.

حكاية وسادة

(1)

أنا وسادة، وسادة بسيطة. لست من ريش النعام، بل أنـــا وســـادة من القطن. جيء بي أول مرة إلى تلك الدار العتيقة المرصوفة بالآجر. وضعوني في حجرة نوم ذات سرير نحاسي.

فـــي تلك الحجرة شممت أول مرةٍ عبق نسائم دجلة، وتـــناهت إليّ عبر نافذتها صيحات الصيادين إذ يجمعون شباكهم في صباحات جميلة ندية.

كـــان الرجل الذي يريح رأسه فوقي يغادرني فجراً، فأتطـــلع إلى الوســـادة الـــثانية، لصقي، وأرى شلالاً من الشعر الكستنائي اللامع يجري فوقها.

كانت تلك الشابة السمراء البشرة تمد أصابعها الحانية وتتلمسني أما أصابع الرجل الخشنة فكانت تسحب، فجراً، شباكاً مثقلةً بالأسماك الفضية.

تترك، فوقي، تلك المرأة، آثاراً من لمسات يديها، خصلات من شعرها الكستنائي، مسحات شفتيها المكتنزتين المصبوغتين بأحمر شفاه بنفسجي اللون. تضمني إلى صدرها. تقبلني. أتنشق عطرها الجميل. أتحسس نعومة ثيابها الهفهافة. كان الرجل يحب فستانها البنفسجي. حين ينهض من نومه فجراً تكون السماء بنفسجية اللون.

يغيب عني الرجل أياماً معدودات. ينتابني قلق شديد. تضعني المرأة على وجهها الناعم. تتشمم رائحة الرجل الغائب. تقبلني. يسيل فوقي ماء أسود حار. لم يخيل لي أبداً أن البشر يمكن أن ينبجس منهم ماء حار مالح. ما كنت أعرف أن في أجسادهم سوائل أخرى غير ذلك السائل الأحمر اللزج الذي كنت أراه غالباً على ملاءة السرير. كان الماء الحار يبللني كلما يغيب عني الرجل. غالباً تحتضنني المرأة بحنان، تضغطني بقوة، فأكبت ألمي حياءً وأتمنى عودة الرجل.

كان الرجل يحلم دوماً بالأسماك الفضية تتراقص شباكه. أما المرأة السمراء فتحلم دوماً بطفل يحبو فوق أرض الدار الموصوفة بالآجر.

كانت المرأة ترفعني عن الفراش بين حين وآخر، تزيل عني أحلام الرجل وتأخذني إلى سطح الدار. أبقى، هناك، حتى الأصيل. بعدها تنزل بي درجات السلم الحجرية المثلمة. وتعيدني أنا والوسادة الثانية إلى الفراش الناعم في الحجرة ذات النافذة الواسعة.

(2)

عشت سنين طوال في تلك الدار. كانت سنين حلوة لا يعكر صفوها شيءٍ.. ثم فجأةً، تغيرت الدنيا، وصرت أرى الوجوم بادياً على وجهي الرجل والمرأة. وصار الرجل لا يبكر في نهوضه من النوم.. بل يجلس على تلك الأريكة وسط الحوش ويدخن سكائره بشراهة. أما هي فتجلس إلى جانبه صامتة تحدق بالجدران التي تشقق كلسها وفي السقف الذي أنهكته الرطوبة.

وذات يوم أحس الرجل بألم في صدره. غادرني متعباً. جرجر ساقيه بتثاقل. غاب ساعتين ثم عاد وارتمى فوقي. شعر بالغثيان. لمحت حبيبات شفافة على جبينه. أتته المرأة بقدح ماء بارد. قربته إلى شفتيه الذابلتين. وضع قرصاً تحت لسانه. وأغمض جفنيه المتعبين.

أخذ يضع علبة الأقراص الصغيرة تحتي. حين يشعر بـــألم في صدره، يمد يده إليّ، يرفعني قليلاً، يضع قرصاً تحت لسانه، يتقلب في فراشه. ثم يغفو.

لـــم يغادرنــي طوال أسبوع. كانت المرأة تعتني به. تجــلب له طـــبق الحساء، وترفع الملعقة إلى فمه. يبتلع الحســـاء صـــامتاً واجماً. حين يفرغ نصف الطبق، يرفع رأسه ناظراً إلى سقف الحجرة. يمسح شفتيه بمنديل حائل اللون. ثم يرتمي فوقي ثانيةً.

صار الرجل لا يغادرني إلا سويعات قلائل. يجرجر قدميـــه إلى مقهى الصيادين يحتسي شاياً مراً. يستذكر مع صـــديق قديـــم أيام الطفولة والشباب. صديقه يردد بأسى أغنيته الأثيرة: "يا صياد السمك صد لي بنيةً". يطفئ عقب سيكارته.. يضرب كفاً بكف.. يطلق حسرة عميقةً ويهتف قـــائلاً: "ضـــاع كل شيء.. جف النهر وتحول إلى ساقية صـــغيرة. يعـــود للبيت. يحكي للمرأة عما جرى له في المقهى.. أرهف السمع لكلماته الطافحة بالألم والمرارة.

أخـــذت المرأة تغيب عن الدار وتعود عصراً منهكةً، فـــي ثيابها القديمة البالية رائحة قمح. يكسو منديل رأسها الحائل اللون مسحوق أبيض ناعم.

أصـــيل كـــل يوم تصنع أقراصاً سمر خشنة. يأكلها الإثــنان مــع صــحني الحساء في الحجرة ذات السرير النحاسي.

حين أخذتني المرأة، ذات يوم، إلى السطح، فوجئت بـــأن الدار تكاد تكون خالية. فقد اختفت الدراجة الهوائية الحمراء ذات العجلات الثلاث التي تمنت أن يعتليها طفل ضاحك الوجه. واختفى ذلك الجهاز الموضوع على الرف الذي كان يصدح بالأغاني ذات يوم.. أغاني الفلاحين في خـــلال موســـم الحصاد، أغاني العشاق في ليالي السهر والانتظار، أغاني الصيادين المسرورين بصيدهم الوفير.. اختفت أشياء أخرى.. لا أدري ربما هي مثلي معروضة للبيع في أحد أسواق المدينة.

أنــا مجـــرد وسادة. وسادة بسيطة رقد فوقها رجل امـــتلأت شـــباكه فيما مضى بالأسماك الفضية. هو الآن طـــريح الفـــراش، ينهشه الجوع. يمكث في غرفة لم يعد يســـمع عبر نافذتها الواسعة صيحات الصيادين، ولم يعد يشم منها عبق نسائم دجلة.

أحدق بوجوهكم يومياً، وأنتم تمرون بي، كل صباح، ذاهبين إلى مدارسكم، دكاكينكم، دوائركم؛ دوختكم الدنيا.. وجوهكم شاحبة، متعبة، ناشفة.

الشيب شرع يغزو شعوركم. الغضون تلوح على جباهكم وحول شفاهكم المزمومة باستياء. معظمكم يرتدي أسمال رثة، نفر قليل منكم في ألبسة أنيقة زاهية الألوان.

مع أنكم جميعاً تمرون بي، إلا أن أحداً منكم لم يكترث بي يوماً، ولم يخطر بباله قط كم قاسيت، كم سهرت، كم بللني الماء المالح، وكم عانيت من الأحلام المزعجة والذكريات المريرة.

عتبي عليكم، أنكم لا ترونني، مع أنكم تحدقون بي يومياً. لعلي سأبقى هنا في هذا السوق، حتى يأتي رجل أو سيدة، فيأخذني تحت ذراعه، لأبدأ حياة أخرى.

(3)

لم يأت إلي رجل محترم أو امرأة محترمة، بل شحاذ أشعث الشعر، يرتدي دشداشة رثة حائلة اللون، ذات جيب صدر ممزق إلى النصف. وقف قبالتي. رفعني وشرع يتأملني بإمعان.

قال الشاب الذي يلبس النظارة الشمسية: "ضع البضاعة، أيها الخروف الأجرب.

ذهل الشحاذ. لم يقل شيئاً. انتزعني الشاب من بين يديّ الشحاذ بقوة هاتفاً بسخرية: "اتركها أيها القذر.. اجعل من نعليك وسادة لك. هذا إذا لم تكن حافي القدمين!!".

لم يردْ الشحاذ بشيء. أعادني الشاب إلى مكاني فوق عدد من البطانيات السمكية التي نقشت عليها نمور ملونة.

فتح الشحاذ كفه اليمنى القذرةِ، الرطبة. كان فيها بضع أوراق مالية.

قال الشحاذ: "لم انتزعتها مني؟ خذ ثمنها. كم ثمنها؟"

رد الشاب ذو النظارة الشمسية: "مائة دينار لا غير.

ضحك الشحاذ ضحكةً بلهاء. فتح فمه المتسخ على وسعه، بانت أسنانه الصفر الكبيرة. قال بنبرة ألم: "خذ مائة دينار إذاً. وأعد لي الباقي.

استل الشاب ورقة مالية فئة مائةِ دينار. رفعني الشاب ورماني إلى صدر الشحاذ قائلاً بارتياح: "خذ البضاعة إذاً. أحلاماً سعيدة. Sweet dreams.

أخذني الشحاذ تحت ذراعه. صدمتني رائحته. كانت نتنة ومقززة.

سار بي مسافة. توقف قرب عربة خشب يلتم حولها صبيان يمدون أيديهم ويأخذون مخاريطِ فيها ثلج أحمرٍ قان.. مرت من هناك فتاة ترتدي قميصاً أخضر فاتحاً، يطوّق كتفيها شاب أنيق الملبس، يعتمر قبعة من القش.

اصطدمت الفتاة بي. فصرخت مذعورةً: "يا للتعاسة!! شحاذون يحلمون!!"

ضـــحك الشاب الأنيق ضحكةً صافيةً، أنزل ذراعه مـــن حـــول كتفيها. قادها من يدها متحاشيين الشحاذين، الـــباعة الصغار، أصحاب عربات الخشب. أخذني الرجلِ النتن إلى رصيف ترامت عليه الظلال. كان المكان بارداً بعـــض الشـــيء. طرحـــني أرضاً قريباً من جدار مطلي بـــالأبيض. ثمِ تمدد على الرصيفِ وأراح رأسه الأشعث فوقي. أحسستُ بالقرف. ضقتُ ذرعاً برائحته الزنخة.

مر رجل في الأربعينِ، في ذقنه شامة كبيرة، يحمل بيـــده اليمـــنى كتاباً سميكاً. حدق بالرجل المستلقي على الرصـــيف الـــذي سرعان ما أغفى في ذلك الظل البارد، وانكشـــفت ســـاقاه القذرتـــان، النحيلتان، الناتئتا العظام، وســـرواله الداخـــلي الأبيض. هز رأسه عدة مرات وهو يـــتحدث بصـــوت أقرب إلى الهمس: "نامي جياع الشعب نامي..

بعـــد قـــليل أقبل رجل يرتدي قميصاً أبيض، متسخاً وربطة عنق زرقاء متسخة أيضاً. نظر إلى الرجل النائم شزراً، قلب شفتيه بامتعاض.

أشـــار عـــلى ســـائق سيارة كبيرة، غريبة الشكل، بالتوقف. أوقف السائق سيارته الصفراء قرب الرصيف.. انحنى الرجل ذو القميص الأبيض، شد الشحاذ من شعره، انتزعني كمن ينتزع جذراً، أعاد الرأس إلى الأرض.

كـــان الرجل ما يزال يغط في النوم. مشى خطوات قلائـــل ورماني في الجزء الخلفي من السيارةِ الصفراء. وفـــي لحظات شرِعت السيارة تتحرك. حاولتُ النظر إلى الشحاذ لكنني كنتُ في جوف السيارةِ ولم أرِ شيئاً. بعدها، يـــا ويلي، يا لحظي العاثر، شعرتُ أن شيئاً ما ينزل عليٍ ويكبسني بقوة، وبلا رحمة. وفي الحال، شعرتُ أن ستارا أسود ينسدل عليّ إلى الأبد.

الكوت 1995

الهولندي الطائر

(1)

أنا رجل عاطفي، أهوى ثلاثاً: الموسيقى، الآيس كريم، والنساء..

ولأنني أعشق الموسيقى فأنا أُسمع مرضاي ألحاناً عذبةً، بينما هم ينتظرون دورهم في الصالة الواسعة.

الواقع، أن أغلب مرضاي من الجنس الناعم؛ فتيات بين السادسة عشرة والخامسة والعشرين، وسيدات في سني زواجهن الأولى..

أنا، بطبيعة الحال، لا أخذل أية شابة أو سيدة، تكن لي عاطفةً حقيقية، أو إعجاباً مخلصاً. فأنا أعتقد اعتقاداً راسخاً أن من الحقارة ألا نبادل القوارير مشاعرهن الصادقة، ولو من باب الأدب واللياقة.. على أنني لا أكتفي بذلك البتة، بل ألجأ إلى ملاطفتهن كما أكتب لهن

كلمات رقيقةً على أوراق الوصفات الطبية.. لكنني، مع ذلك، لا أطيق أصوات الجميلات الراعشة المبللة بالدمع.. فأنا، ببساطة، بعد أن أسمعهن سونيتاتي العذبة وبعد أن أكتب لهن القصائد الجميلة على الورق الصقيل، سرعان ما أخطف نفسي من عالمهن، من غير أن أترك في أفئدتهن جروحاً بليغةً، ومن غير أن أخلف في نفوسهن ذكريات مريرةً وموجعة.. مع أن ذكرى أقداحِ الآيس كريم التي أتناولها معهن أسفل العيادة تظل أثيرةً إليهن، ويبقين يتذكرون طعم الشوكولاته، حتى بعد الزواج أو الرحيل.. كما أسرّت إلي ثلاث منهن، أرسلن لي خطابات من ثلاث مدن عريقة: روما، دمشق، البصرة.

ولأنني رجل عاطفي، كما أسلفت، فقد وقعت، لا إرادياً، في شباك العديد منهن. لا عجب، فالحب اصطادُ في شباكه أقسى الجبابرة وأغلظ الطغاة؛ غير أنني لستُ من هذا الصنف ولا ذاك. أنا، ببساطة، رجل في الخمسين، أشيب الشعر، قصير ونحيل، يحب الموسيقى ويود أن يعيش بقية عمره بسلام. هذا لا يعني أني أريد أن أعيش عيشةً عقيمةً فاترة، وأن تهز لي شريكةُ حياتي رأسها موافقةً، في كل مرة، وأن تبتسم لي ابتسامةً بلهاء، تنم عن حسن الطوية أو الرضا.. لا، على العكس، أريد امرأةً مشاكسةً، عنيدة نوعاً، صعبة المراس نوعاً، أريد امرأةً من زبد، أنثى تتماوج تحت قميص نوم شفاف، ذات

جسد أشبه ببحر غاضب، عنيف، مضطرب، متلاطم، يكسر كل الصواري ويغرقها بين أمواجه الصاخبة. خلاصة القول: أنثى لا تبقى ساكنةً ساهمةً بليدةً؛ بل أنثى تعزف معي لحناً مصاحباً.

الواقع، حصلت لي في خلال ربع القرن الذي زاولت فيه العمل، مواقف مثيرة وحكايات غريبة لا تقل غرابة عن حكايات ألف ليلة وليلة أو قصص مورافيا أو غونتر غراس أو يوسف إدريس. فقد اتهمتني العديد منهن بالقسوة والعنف والغلظة؛ ونعتتني شابة نزقة ذات غمازتين في الخدين بأني رجل وحشي أعبث بأعصابهن وأحطم أفئدتهن. كما وصفتني أخرى، تدرس الفلسفة، تتأبط دوماً "مقدمة ابن خلدون"، كوني شيخاً متصابياً لا يخجل من نفسه.. وذهبت إلى القول بأنني وعدت عشرات الفتيات بالزواج دون أن أفي بوعدي مرة واحدة، لا بل أن شابة جميلة قررت الطلاق من زوجها بعد أن ظنت أن قدح الآيس كريم المطعم بالفستق الذي اشتريته لها أسفل العيادة ما هو إلا مصارحة بالحب أو وعداً بالزواج الأكيد.

بطبيعة الحال، أنا بريء كل البراءة، من كل الأقاويل والشائعات التي لاكتها الألسن بحقي؛ مع أنني لا أنفي كوني قد أُعجبت بالعديد منهن وفتحت فمي الواسع كي

يضعن فيه ملعقةً أو ملعقتين من الآيس كريم.. كنت، دوماً، أنهي قدحي قبلهن.. فأنا رجل يحب الآيس كريم حباً عظيماً.. ويتمنى، دوماً، أن يلعق مخروط الآيس كريم في فراشه الوحيد.. ما أجمل أن تكون مع زوجتك في فراش وثير دافئ، تلعق البرودة المنعشة، وتستمع لموسيقى عذبة منبعثة من غرامفون قريب.

وكما ذكرت آنفاً، وقعت لي أحداث مثيرة. من ذلك أن فتيات كثيرات في ميعة الصبا، أو سيدات مكتملات الأنوثة، نسين عندي حاجياتهن الخاصة:.محفظات جلدية أنيقة، مناديل صغيرة مورّدة، أمشاط ملونة، مشابك شعر جميلة.. بطبيعة الحال، كانت تلك المشابك المرصعة باللؤلؤ والمحار والكريستال والكهرمان والشذر وما إلى ذلك تسقط في خلال حركات رؤوسهن.. على أنهن كن يرجعن ثانيةً بعد مرور أيام أو أسابيع أو حتى شهور عديدة ليسألن عنها.. والحق كان بعض تلك المشابك قطع نفيسة، أو كنوز ثمينة.. كنت، طبعاً، أسلّم المشبك الضائع إلى صاحبته. تأخذه الفتاة أو السيدة ببسمة خفيفة وهزة رأس لطيفة مصحوبتين بكلمة اعتذار أو شكر.

ذات مرة، في خلال النصف الأول من الثمانينيات، على الأرجح، جاءتني شابة سمراء نحيلة غاية النحول وقالت لي أنها أضاعت مشبك الشعر في عيادتي. أعلنت

هـــي: أن مشبك الشعر الضائع جاءني كهدية من شقيقي الرسام العراقي المقيم في روما.. إنه تحفة فنية، ولابد أنك تعــرف أذواق الفنانين ورهافة أحاسيسهم. أريتها مشابك الشــعر الـتي حفظــتها فـــي درج مـــن أدراج خزانتي الزجاجية. لا أذكر الآن، كما كان عددها يومئذ، خمسة أو ســتة، في الأرجح.. نفت هي بانزعاج أن يكون مشبكها الفريد واحداً من تلك المشابك العادية، المبتذلة، وأصرت عــلى القول أنها أسقطت المشبك على الكرسي في خلال المعالجة. الواقع، كانت تلك الفتاة وقحة غير أنني لم أكن أذكــر أنـــني عالجتها يوماً.. وهذا ما يحصل لي، غالباً، فهـــنالك مرضـــى ما أن يغادرون عيادتي حتى أنساهم.. وهـــذا مـــا سبب لي الحرج في بعض الأحيان.. على أي حال، في ذلك الوقت، لا أدري ما هو السبب، خطر ببالي أن أغيـــظ تلك الفتاة السمراء. فقلت لها في بادئ الأمر: "عزيـــزتي، الذنـــب ذنـــبك، أنـــا لم أطلب منك أن تحلي شـــعرك.. كـــل مـــا نطلبه منكن هو أن تفتحن أفواهكن وتتحـــلين بالسكينة لأن العلاج سيكون بلا ألم.. فما ذنبي، إذاً، إن أضـــعت مشبك شعرك، أعني التحفة الفنية النادرة التي أرسلت إليك من روما. زعقت بوجهي، الحق الحق أقـــول لكم أني استغربت تلك الوقاحة من فتاة لم تزل في ميعـــة الصـــبا.. قالت: "هل تسخر مني دكتور؟ أتظنني

مغفلةً كي أخرج من هنا دون أن أحصل على مشبك الشعر؟"

ولأنني لا أحب أن أزعج مريضاتي فقد أنهيتُ النقاش، وهذه عادتي أصلاً، بعبارة واحدة: "اسمعي، خلاصة القول، اشترِ أجمل وأغلى مشبك شعر وسأدفع لك ثمنه.. وحمداً لله فأنت أضعت شيئاً يمكن تعويضه، فما بالك تفعلين إذا ما فقدت شيئاً قد لا يعوّض أبداً؟"

نظرت إليّ الفتاة نظرةً شاردة. خفضت رأسها فانسدل شعرها كالشلال وغطى نصف وجهها. استدارت على عقبيها وانصرفت. لم ترجعْ إلي ثانيةً. انتظرت أسبوعاً وشهراً وسنة. إلا أنها لم تعدْ أبداً. لعلها أدانت نفسها على تلك الوقاحة والفظاظة، أو ربما اكتشفت أن لعبتها الذكية لم تجدْ معي نفعاً. ذلك أن بعض الناس يحسبون أن المشاكسة دليل ساطع على قوة الشخصية. وإن تلك الفتاة السمراء افتعلت تلك القصة البائسة كي تبقى ذكراها راسخةً في بالي.. وربما يتحول حديثنا القاسي بعد حل مسألة مشبك الشعر حلاً سلمياً إلى حديث رقيق وناعم.. ومن ثم.. في اعتقادي أن الفتاة ربما تكون قد جربت هذه اللعبة الذكية مع طبيب آخر.. أو ربما مع صاحب مخزن إكسسوارات أو تاجر ألبسة جاهزة.. أو

لعلها كفت عن ممارسة اللعبة إلى الأبد واختارت بدلاً عنها لعبةً أخرى: أكثر ذكاءً وأكثر مكراً.

وأود أن أذكر في هذا السياق، أيضاً، أن العذارى الجميلات لم يتركن في عيادتي تلك الحاجات الشخصية التي ذكرتها آنفاً وحسب؛ بل تركن أيضاً عطورهن الفرنسية، شذى فساتينهن، قمصانهن القطنية، قمصانهن الحرير المزركشة. تركن حبات الهيل التي طيّبت أنفاسهن.. كما تركن أولاً وقبل كل شيء، على مرايا الفم، أحلى المرايا التي رأيتها في العالم كله، وأثمن المرايا التي اقتنيتها في خلال سني حياتي، تركن على تلك المرايا الصغيرة، أو لعلها أصغر المرايا في العالم، مسحات شفاههن.. شفاههن الريانة، المكتنزة، الحزينة، الصامتة؛ شفاههن اللاتي بلون شقائق النعمان، شفاههن اللاتي تعطرت بحبات الهيل، وعطرتها بدوري باليوجينول(2).

كنت أحتفظ بمرايا العذارى في حقيبة خاصة، حقيبة جلدية خصصت أصلاً لحفظ أدوات منزلية صغيرة كالملاعق والشوكات.. كنت أضع رمزاً بالقلم الماجك على كل مرآة أستخدمها في فم كل واحدة من العذراوات.

في ساعات فراغي، في العيادة، أو في شقتي التي أعيش فيها وحيداً، والتي لا تبعد سوى مئات الأمتار عن مؤسستي.. كنت أصف المرايا على طاولة المطبخ في

الشقة أو على زجاج مكتبي الأنيق في العيادة.. من يتطلّع إلـيّ من نافذةٍ عبر الشارع يحسبني ألعب الورق وحدي كمـا يـروق للـبعض أن يفعل عندما لا يكون هناك، ما يستحق المشاهدة في التلفاز.

أصف المرايا قبالتي.. أصفها واحدة جوار الأخرى.. افتح الحقيبة الجلدية التي ترافقني في حلي وترحالي.. لو أن لصاً سرق تلك الحقيبة مني وأنا في طريقي إلى العيادة أو الشقة، فمن المؤكد أنه كان سيلعنني ويشتمني عشرات المـرات لأنـني تسببتُ في هدر وقته وضياع جهده؛ فما معـنى أن تصف مرايا الفم في حقيبة جلدية أنيقة، يخطر بـبال أي لص ذكي في مدينتنا أنها مليئة بالدنانير لا بل آلاف الدنانيـر.. في حين يكتشف هو، ويا لحظه العاثر، إنهـا تكاد تكون خالية إلا من تلكِ المرايا الصغيرة ذات، المقـابض الفولاذيـة.. وكما قلتُ، أفتح الحقيبة، وأصف المـرايا أمـامي.. صـفارة.. تعـداد صـباحي آنساتي الجميـلات.. لا.. لا.. لا يهـم.. ليس بالضرورة حسب الطـول.. أرتـب المـرايا عـلى مكتبي أو على طاولة المطبخ.. المقابض قريبة مني والمرايا قبالتي.. أهمس مع نفسـي.. هذه هي كنوزي.. كنوزي التي لا أعادلها بكل الكنوز التي قرأتُ عنها في الصحف والمجلات الأسبوعية المصـوّرة، ولا حـتى تلك الكنوز التي تصفها الروايات وقصص الجان.. إنها أثمن من كنوز الملك سليمان.. إنها

كنوزي أنا، ملكي وحدي، لا يشاركني فيها أحد من بين خلائق الدنيا كلها.. أنا المالك الوحيد؛ هبات سماوية، منحها لي الباري.. وها أنذا ألهو بها، أتسلى بها، أهمس لها، أناجيها، أغني لها، أتغنى بها.. أروي لها القصص والأساطير أداعبها بأطراف أصابعي.. أمسح على شفاه خليلاتي العذراوات.. هذه شفة وفاء، وهذه شفة شذى وتلك شفة أصيل.. أنقل مرآة شذى وأضعها في محل مرآة هيفاء.. هذا الموقع يناسب مرآة شذى.. ليس من اللائق أن أضع مرآة شذى في الحافلة.. أضع شفة شذى جنب شفة سارة. ثم أبدل رأيي ثانيةً وأخاطب نفسي ها: لا، لا.. يستحسن وضع شفة شذى في هذا الموقع.. إن شفتها الرقيعة ضاربة إلى اللون البني، لذا من الأفضل أضعها هنا.. بين شفة بشرى وشفة بان.. أو لعل من الأفضل أن أضعها إلى جوار شفة إيمان.. فإيمان صديقة شذى من سنوات طوال.. ربما قبل عشرة أعوام.. أو حتى قبل ذلك.. إيمان كانت ترسم بالألوان المائية طواويس ملونة.. أما شذى فكانت تشارك في المعرض السنوي بلوحات من الخط الكوفي.. كانتا في صف واحد في المدرسة الثانوية، ومرت السنون، وصارتْ كل منهما لا ترى صاحبتها ولا تسمع أخبارها.. وكما نقول نحن، عادة، باعدت بينهما نوائب الدهر.. التقتا ذات يوم ، بمحض الصدفة، في صالة الانتظار،

فتهـلل وجه كل منهما وصاحت على صاحبتها.. وهكذا ساهمت عيادتي في التئام الشمل.. بعدها صارتا تخرجان معـاً للتبضع أو النزهة وتتصل كل منهما بالأخرى عبر سلك الهاتف.. وكما نقول نحن العرب عاد الوصال القديم. أنـا أيضـاً آثرتُ أن أضع مرآة إيمان لصق مرآة شذى. غالـباً أرى مـرآة شذى تتكئ على مرآة إيمان.. أتخيل شذى تنشج على كتف إيمان.. تستفسر منها عن محنتها.. تأخذها إيمان إلى مصطبة خشب تحت شجرة صفصاف.. تجلسـان.. إيمـان تمسـح الدمـع الحار على خد شذى بأطـراف أصـابعها الممتلـئة. اهدأي عزيزتي، هوني عـليك.. الفـتيات فـي مثل سنك يعانين ما تعانين لا تخـافي، اضـطراب بسـيط في الدورة الشهرية.. كلنا، عزيـزتي، معرضـات للمرض واليأس والكآبة؛ أفكارنا مضـطربة، دورتـنا الشهرية مضطربة، أسعار بضائعنا مضطربة، كل شيء في عالمنا مضطرب.

فـي بعـض الأحيان أصف مرايا الجميلات حسب حـروفهن الأبجديـة العـربية وغالـباً حسب الأبجدية الإنكليزية. عاشت الأسماء.. مرآة أصيل دوماً جوار مرآة بشـرى رغم أن لونـي حمرتهن مختلفان تماماً، ورغم أن إحداهما لا تعرف الأخرى.. أغلب الظن أنهما تقابلتا في المصـعد الكهربائي في طريقهما إلى الطابق الرابع.. أو ربمـا فـي الحافلة التي أقلتهما إلى عيادتي.. لا فرق..

أصـــيل طالبة جامعية تدرس الاقتصاد، أما بشرى فمعلمة روضـــة أطفـــال.. أصيل شابة متكبرة نوعاً ما مع أنها حساســـة وطيـــبة.. أمـــا بشـــرى فهي شابة في الرابعة والعشرين، أنيقة، منفرجة الأسارير، إلا أنها قليلة الكلام.

انعقدت أواصر صداقة بين عذراواتي؛ غالباً ما كنت أراهن يتهامسن فيما بينهن، أسرار البنات، أهمس لنفسي.. كنتُ أراهن، دوماً، يتحلّقن حول شذى، فهي للعلم أكثرهن ذكـــاءً وأناقةً.. ولعلها أكثرهن أنوثةً على الإطلاق.. أما تـــنوراتها الحريرية المتماوجة فقد أشعلت في داخلي ناراً أبديـــة، قاســـية.. شذى رفضتْ دعوتي لتناول قدحِ آيس كـــريم، اعتذرت بأدب جم، لكنني مع ذلك بقيتُ أكنّ لها الاحترام والإعجاب.

يـــروق لي، أحياناً، أن أصف مرايا الفم بهيئة أشعة تنطـــلق من مركز سطح الطاولة أو المكتب، ولما كانت مقـــابض المـــرايا فولاذيـــة لـــذا تبدو الأشعة فضية. في الرياضيات الشعاع له نقطة بداية وليس له نهاية.. وهكذا هـــي حياتي مع النساء، كانت لها بداية وليس لها نهاية.. وهـــذا هـــو الحال دوماً مع ود النساء، مع أن راسبوتين انتهى نهاية فاجعة، دسّوا له السمّ وألقوا بجثته في النهر.

في الأيام المطيرة، عندما يكون عدد المرضى قليلاً، أغمض عينيَّ وأنتقي مرآةً من المرايا –كان عددها يصل

غالباً إلى عشرين مرآة- أصابعي تصل دوماً إلى مرآة بان أو هيفاء- كان يروق لي أن أمس حمرة شفاه بان على المرآة.. كانت هي تستخدم عطراً رائعاً وتصبغ شفتيها بلون أحمر قانٍ.. هي لاتبدل لون أحمر شفاهها مع أنها شابة ذات نزوات وعصبية المزاج.. ذات مرة حاولت أن تنتحر، كتبتْ على الحائط بقلم الحمرة: آسفة لإزعاجكم.. لكن شقيقها الأكبر أنقذها في اللحظة الأخيرة وانتزع من يدها قنينة السم. هيفاء بائعة متجر، شابة جميلة، ممشوقة القوام، إلا أن أنفها أفطس بعض الشيء.. أما فمها فجميل وشهواني.. هيفاء كانت تصبغ شفتيها بلون ضارب إلى البنفسجي، لماع، بحيث كان فمها يغري بالتقبيل؛ مع أن الأطباء يقولون أن زرقة الشفاه دليل جلي على الإصابة بأمراض القلب.. هي لمِ تكنْ عليلة أبداً.. اتهمتني ذات يوم بالقسوة قائلةً.. "أنتَ جزار!!" فما كان مني إلا أن صفعتها على خدها.. وبعد ثوانٍ، ثوانٍ معدودات، لا غير، قبلتها قبلةً طويلة؛ مازلت أشكُ حتى الآن ما إذا صحتْ من قبلتي، أو ربما يجدر بي القول من صفعتي. بعد ذلك بدأتُ أكرهها كرهاً شديداً، ونصحتها بعد زيارتين أن تراجع زميلاً لي أقل مني قسوةً، فأخذتُ حقيبتها السوداء ولم تعدْ لي ثانيةً.. وأنا كذلك، هشمتُ مرآتها بمقبض رافعة الجذور.

مـرآة وفـاء كانت دوماً بعيدة عن أصابعي.. وفاء كـانت تـزورني كـثيراً. شابة في الثامنة والعشرين أو الثلاثين، هزيلة هزالاً ملفتاً للنظر، فوق شفتها العليا شامة سوداء تضفي على وجهها مسحة من الرقة.. وفاء لم تكنْ طموحـة، هي دوماً على شفير اليأس والكآبة.. حاولتُ، مـراراً، أن أنتشـلها مـن قنوطها.. لاطفتها، كتبتُ لها القصـائد، كـانت تبتسم ابتسامة طفوليةً، غير أن الحزن مايلبث أن يرتسم على وجهها الأبيض المنمش. عندئذ لم يكـن بمقـدوري سـوى أن أوصلها إلى محطة الباص وأودعها.

أمـا ياسـمين فهي الوحيدة التي لم م عنها حتى الآن. شـابة عسلية العينين، قد متناسق، نهدان صغيران، شـفتان شبيهتان بشفتي مارلين مونرو.. ياسمين لم تكن تـرتدي حمـالات الصـدر، لابل كانت تنفر منها نفوراً شـديداً.. كـانت تأتي بالقميص الأسود، سروال (الجينز) الأزرق وحـذاءي التـنس. فمها واسع وجميل ومحلّى.. أراها عادةً تمرر لسانها الوردي على شفتيها الدبقتين. كان يروق لها أن تصعد درجات السلالم مهرولة دوماً، تحاذر مـن أن يسـقط من يدها مخروط الآيس كريم.. وعندما تفرغ من تناول مخروطها، تنتزع طرف قميصها الأسود مـن تحت سروال (الجينز)، تمسح أطراف أصابعها بذيل القميـص، ثـم تعقد ذيل القميص في عقدة، كانت تسميها

دوماً "عقدة غورديوس" ذات يوم أغوتني. قالت: "دكتور، مســحتُ أصابعي اللزجة بأطراف قميصي، فعل تعتقد أن اللزوجة تنتقل إلى بطني؟ أحس أن ثمة شيئاً يدغدغني.. صارحتني بشبقها بصوت خفيض. قالت لي: "سأسجل كل ماروثــته من أبي لزوجي بعد شهر العسل مباشرةً.. ماذا يــنفع أن تكون لديك الثروة بينما تعيش أنت على هامش الحياة، لاتعرف شيئاً اسمه النشوة.

ياســمين تصل متأخرة دوماً، هي آخر المرضى، أو آخــر الملائكــة، مــلاك جميل وشهواني.. عندما يكون الطقــس معــتدلاً ودرجة الحرارة أقل من الثلاثين مئوي يكون بمقدورها أن تصل العيادة من غير أن يذوب الآيس كــريم فـــي المخــروط.. اتصلت مرةً هاتفياً من كازينو المرطــبات فـــي الأســفل وسألت ممرضتي إن كان لي مرضى.. وعندما أجابتها ممرضتي بالنفي أخبرتها بأنها آتية إلى العيادة بثلاثة مخاريط مرطبات.. الأول للطبيب، الثاني للممرضة، الثالث لها هي. كانت تلح عليَّ دوماً أن تأتيــني بمخروط مرطبات كلما وجدتني بلا عمل.. كان يُطيــب لهــا أن تقول باسمةً: ذق مخروطي. إنه أشهى.. الآيس كريم يصبح لذيذاً عندما يبدأ بالذوبان.. زارتني في شقتي مرتين وسببت لي الضيق والحرج. وقفت ذات مرة أمــام مرآة الزينة.. كانت قد لعقت مرطباتها، باعدت بين ساقيها ورفعت ذراعها اليمنى إلى أعلى، في يدها مخروط

الآيس كريم الفارغ: قل لي، دكتور، ألا أصلح أن أكون موديل رسام أو نحات؟ إحزر أنا أقلّد من؟ أجبتها: تمثال الحرية طبعاً.. فسألتني واحداً من أسئلتها التي كررتها كثيراً: هل تعتقد أن أميركا هي بلد الحرية فعلاً؟

عندما كنت أجري القرعة في فصل الصيف، كانت أصابعي تصل دوماً إلى مرآة شذى، فكنت أفرح فرحاً عظيماً، ويخفق قلبي باضطراب، وكأنني على موعد قريب معها في "متنزه المتبني"، أو في كازينو المرطبات أسفل العمارة.

لايذهبن بكم الظن أنني كنت أحتفظ بالمرايا ردحاً طويلاً من الزمن.. لا.. فالألوان الجميلة لشفاه خليلاتي سرعان ماتبهت وتزول نهائياً.. لكنني كنت أحتفظ دوماً بمسحات شفاه جديدة على مرايا الفم. هناك دوماً مسحات قديمة زائلة ومسحات جديدة طازجة. ثمة عذارى يخرجن من عالمي وأخريات يستللن إليه أو يدخلن من أوسع الأبواب. غالباً تطلب مني إحداهن أن أطبع قبلة على شفتيها، لأنها سترحل عما قريب، أو ستتزوج في غضون أسابيع قلائل.

كنت ألبي الطلب طبعاً.. لكنني في اليوم نفسه، ربما بعد ساعة أو حتى أقل من ذلك، أتخاصم مع إحداهن

وأهشـــم قــدح الآيـــس كريم.. "قبلة في الشفة وطعنة في القلب"3-.

انعقدت بيني وبين المرايا صلاة حميمة سرية. كنت أضـــع المــرآة على راحة يدي وأحدّق بها. وفي بعض الأحيـــان، حين يسكنني الحنين، أضم المرآة إلى صدري، وأهمـــس لهـــا لواعج قلبِي، أبوح للمرآة ماتعذر عليّ أن أبوح به لصاحبتها.. كنت أقولِ دوماً لمرآة شذى: يطيب لي أن أتحدث إليك حديثاً خاصاً، لأن صاحبتك تتمتع بعقل راجـــح وأنوثـــة طاغيـــة.. وأقـــول لمرآة بان: اسمعي، عزيـــزتي، أنت خفيفة الظل، رقيقة الروح، ناعمة شأنك شأن بشرة بان.. لكنك للأسف، تنفجرين غضباً، من غير سبب، وتتهشمين بسرعة.

وأخيراً جاءت سوزان.

كانت تلك أول زيارة لها. الوقت مطلع تشرين الأول (أكـــتوبر)، الطقس معتدل، الرياح شمالية شرقية خفيفة.. يـــروق لي دوماً أن ألتقي بأناس جدد وفتيات جميلات في خـــلال هـــذا الشهر من السنة؛ فمزاجي أنا شخصياً، في الأقـــل، يكـــون حينئذ رائقاً صافياً لايعكره شيء، البتة، بحيـــث أن خليلاتي يلححن كثيراً على المعالجة في خلال هذا الشهر الجميل.

سوزان لم تكن ترتدي فستاناً، بل قميصاً قطنياً أبيض اللون وتنورة رمادية واسعة جداً. كانت تنورتها قد انسدلت على الجانبين، حتى كادت تمس رقعة الداما لا أدري لماذا شغف معماريونا ومهندسونا حباً بنقش رقعة الداما بحيث يندر أن تجد عمارة أو قاعة من قاعات مدينتنا تخلو من هذا النقش.

قلت لها بأدب: "آنستي، هلا تفضلت ورفعت ذيل تنورتك، أقصد ذيل الدانتيلا؟"

ندت منها ضحكةٌ قصيرةٌ: "عفواً.. تنورتي ليس لها ذيل دكتور.. إنها حاشية التنورة.. تصوّر، دكتور، ذات يوم سحبتُ حاشية تنورتي، فتزحلق الكرسي وهوى الطبيب على قفاه..

قلت: "أتيتِ للمعالجة فأوقعت الطبيب على البلاط. من منكما عالج الآخر؟"

قالت: "لا فرق.. اعتذرت من الطبيب اعتذاراً رقيقاً.. كان وجهه قد اكفهر.. فنصحته أن يستلقي على الكرسي الذي كنت قد جلستُ عليه.. لاح الشحوب على وجهه.. لم يكن هو شاباً بالطبع.. كان قد تجاوز الخامسة والأربعين، في الأغلب... أخشى أن أكون قد تسببتُ في كسر فقرة من فقراته.. بقيتُ جالسةً إلى جواره نصف ساعة.. أمسح حبات العرق واطمئنه..".

قلت: حسناً.. لنر ماذا يمكننا أن نفعل اليوم؟".

أخـــذت مـــرآتي.. أصغر مرآة في العالم.. وما أن وضـــعتها فـــي ذلـــك الفـــم الجميل حتى عضت سوزان إصبعي.

صـــحت بها: "مابالك آنستي.. ألم تعرفي ان إصبعيّ في فمك؟ أم أنك تتباهين بجودة أسنانك الاصطناعية؟ ماذا كـــنت ســـتفعلين لـــو كـــانت أسنانك طبيعية، ربما كنت ستقطعين إصبعيّ؟"

أجابت: "ربما كنت سأقطعهما فعلاً.

الواقع، ما أن عضتني سوزان حتى بدأت أحبها.

رفعـــت يدي وعاينتُ إصبعي.. رأيت آثار الأسنان الـــتي نبـــتت فـــي جِـــلدي داكـــن السمرة، بين مفاصل الإصبعين.. تغاضيتُ عن الألم الذي بدأت أشعر به.

قـــلت لهـــا: "سوزان أنت شابة مشاكسة.. وعلى أي حـــال، فأنـــا أتقبل مِزحتكِ الصغيرة هذه، مع إنها آلمتني فعلاً. ثم صمتُ قليلاً وقلتُ لها: "اليوم، أنا غير قادر على معالجتك. حبذا لو أتيت في خلال الأسبوع القادم..

أزاحـــت خصـــلة شعر سوداء انسدلت على حاجبها الأيمن الرقيع.. نهضت على قدميها وهمتْ بالانصراف.. وقبل أن تغادر الحجرة قالت: "سآتي حتماً".

زارتني ثانيةً، بعد مرور حوالي أسبوعين.. كانت قد غيّرت تسريحة شعرها، فبدتْ أصغر من عمرها الحقيقي بحوالي أربع إلى ست سنوات..

فـــي بادئ الأمر لم أتعرف إليها.. ذلك أن تسريحة الشـــعر غيّـــرت شـــكل وجهها تماماً.. صار الآن أكثر اســـتدارة، وبدت هي أكثر نضارةً وعنفواناً.. هذه المرة جاءت بفستان حريري قصير ذي طيات؛ كان في مشيتها شيء من التثني والغنج. ياه، أهذه هي الفتاة التي عضتْ إصبعي قبل مدة قصيرة؟ لم أكدْ أصدق عيني ولا عقلي..

كـــدت أســـألها: "أأنـــت التي.. لكنني أحجمت عن الكلام، فقد حسبتُ أنها قد لاتكون تلك الفتاة الطويلة القامة التي مست حاشية تنورتها الدانتيلا بلاط غرفتي.. فكرت أن ذيـــل التـــنورة ماهو إلا حبل غواية ودتْ أن تسحبني به.. وطالما أنها أوقعتْ زميلاً لِيْ على الأرض في وقت ســـابق فإنها تروم أن توقعني في غرامها.. وتحقق لها ما أرادت، على مايبدو.

لعـــلها حدست سؤالي في نظرات عينيّ السوادوين. لفت ساقاً على ساق فانشمر فستانها فوق الركبتين ورأيت فخذيها الأبيضين الطريين.

وعـــندما وضعت إصبعيّ في فمها، ضغطت عليهما بقـــوة.. الآن، طفـــح الكيل، هكذا قلت في قرارة نفسي.. يبدو أنني بدأت أغضب.

قلتُ لها: "أنت امرأة قاسية فعلاً."

كانت هي آخر مريضاتي، ولعلها آخر خليلاتي.. لذا نزلـــنا درجات السلالم معاً. مع أنها عضتني إلا أنها في الواقـــع خمـــنت ماكنتُ أشعر به نحوها.. قلتُ لها كلاما رقيقـــا أقـــرب إلى الهمـــس.. قدتها، بالطبع، إلى كازينو المرطبات وهناك تناولنا كأسينا مثل عاشقين.

حكيـــت لهـــا عن قسوة أبي.. قلت لها أن أبي كان يضـــرب أمـــي ضـــرباً مبرحاً إن هي تباطأتْ في تلبية طلباته.. وظلت تحمل اثر الجرح البليغ في ذقنها. أمي لم تذهـــب إلى المستشفى.. بل وضعت قطعة قماش متفحمة عـــلى الجـــرح.. هكـــذا كنا نداوي جروحنا في منتصف القرن..

قالت: "إنس مسألة العض.. نحن الآن تربطنا علاقة صادقة.

كانت سوزان طالبة موسيقى.. في الثانية والعشرين تقريـــباً.. مديـــدة القامة.. ترتدي دوماً تنورات أو فساتين مفـــرطة الاتســـاع؛ تفضل دوما القمصان الفاتحة الألوان والقمصـــان القطنية ذات الكتابات الشاعرية مثل: "اغتنم

فرصتك معي أو "ليكن حبك سرمدياً".. كنت أرى بيدها، دومـــاً، دفتر النوتات الموسيقية كانت تزورني في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع.. بعد انصرافها من منزل عازفـــة بيـــانو مســـيحية، تعـــرفت إليها في خلال حفلة موسيقية.. قالت لي سوزان: تصوّر، دكتور، عازفة بيانو فـــي الستين من العمر، تضرب بأصابعها الطويلة النحيلة عـــلى مفاتيح البيانو، وتئن أنيناً خفيضاً.. لا أدري.. هل كـــانت تشـــكو من مرض مزمن؟ أم أنها، ببساطة، ترثي عزيزاً، أو حبيباً هجرها إلى الأبد. لم أشأ أن أسألها.. هي ســـيدة محترمة، نقية الأسارير.. ناهيك عن كونها رفيعة الثقافة.. قيل لي إنها أرمنية الأصل.

ذات يوم، في العاشرة مساءً، ذهبنا أنا وسوزان إلى منزل عازفة البيانو. عجوز هرمة، لما تزل تحتفظ ببقايا جمـــال ذابـــل، ذات تســـريحة شـــعر قصيرة.. استقبلتنا بحفـــاوة.. وأشارت بسباتها الرقيقة إلى صالة الاستقبال: "تفضلا.. تفضلا.. ياهلا ومية هلا.."

جلســـنا عـــلى أريكـــة منجدة بقطيفة حمراء سادة.. وجعلـــنا نتطـــلع إلى الجـــدران المزينة بلوحات مائية أو لوحات قماش لفنانين عراقيين، ميزت بين لوحات القماش لوحةً لـــ فائق حسن وأخرى لـــ فرح عبو وثالثةً لـــ حسن عبد علوان..

أشارت سوز "انظر إلى تلك اللوحة.

سألتها: "أيهما تقصدين؟"

قالت: "تلك.. الكبيرة..

أنا: "آ.. تقصدين تلك اللوحة ذات الشرفات الخشبية الخضر..

هـــي: "قصـــة حـــب أليفـــة.. عاشقان في شرفتين متقابلتين.

أتتــنا الخادمـــة بكوبين من القهوة.. ثم انصرفت.. جلســت عازفة البيانو الأرمنية على كرسي ذي مسندين. جلست قبالتنا وكررت ترحيبها.

قـــالت: "أعيـــش وحيدة. ليس لي أولاد أحيا مع الموسيقى.

قادتــنا معـــاً إلى غـــرفة واسعة، مغلفة بألوان من الخشـــب الساج، في آخرها بيان أسود اللون، على سقحه حـــامل النوتات الموسيقية.. "أقضي معظم وقتي في هذه الحجرة.. أعزف وأطالع الكتب.. غالباً يروق لي أن أنام فيها ظهراً.

صـــرنا نلتقي كل خميس في منزل عازفة البيانو نـــبقى هناك، حتى الحادية عشرة ليلاً.. ثم نستقل سيارة اجرة ويعود كل منا إلى منزله..

كـنا، أنا وسوزان، نبقى صامتين برهةً من الوقت.. ثـم آخـذ ذراعَ سوزان الرشيقة ونبدأ بالرقص.. الغرفة واسـعة ملائمة تماماً لأن تكون حلبة رقص.. كان شعر سوزان الأسـود يـتطاير حين تلف جسدها الرشيق.. تـنورتها العريضـة الرمادية اللون تتبرم على خصرها النحيل.. عازفة البيانو تتطلع إلينا بفرح غامر، وتواصل عزف لحنها الطروب؛ أنا وسوزان نطير في الفضاء، في السماء السابعة، بعيداً عن المباني الكونكريتية التي كانت تحاصر مدينتنا من كل الجهات.. غالباً، كنا أنا وسوزان، نـرقص نشوانين على أنغام فالسات شتراوس.. نسترخي بعدها على أريكتين متقابلتين.

بقيـنا على هذه الحال شهوراً عدة.. بعدها انقطعت سـوزان عـن المجـيء إلى العيادة أو إلى منزل عازفة البيانو.. لم تتصل بي هاتفياً.. كما لم ترسل خطاباً للسيدة عازفـة البيانو.. لكنني ذات يومٍ تلقيتُ برقيةً أُرسلت إلي من المطار.

"آسـفة لإزعـاجك.. سـأقلع بالطائرة بعد دقائق.. اعذرني على تلك المزحة الموجعة.

الكويت / 1997

1-*الهولسندي الطائـــر:* اوبرا من تأليف فاجنر، عن بحار تطارده لعنة الحب، فلا يظفر بالمرأة التي يتعلق بها فؤاده. في الأصل أسطورة ألمانية قديمة.

2-*اليوجيـنول:* محـلول ذو نكهــة طيــبة يستخدم في حقل طب الأسنان.

3-*"قبـلة في الشفة وطعنة في القلب":* عبارة وردت فـي مسرحية "قطاع الطرق" لـ شيللر.

بانوراما

حشر مع الناس عيد.

ناولني حفنةً من الزبيب الأسود. وهبطنا معاً.

التقيتهُ على درجات السلم، بالمصادفة. لم أكن أتوقع اللقاء به ثانيةً. سنوات طوال مرّت على لقائنا الأخير. لقاؤنا ذاك كان في حانة ليلية اعتدنا ارتيادها، أنا وهو ومجموعة من الطلبة الجامعيين، ممن تضج رؤوسهم بالأفكار والأخيلة، إلا أنهم مايزالون على قدرٍ من الطيش والنزقِ شأنهم في ذلك شأن كل الشبان الحالمين في العالم قاطبةً.

أما اليوم فقد شاءت الأقدار أن نلتقي على درجات النفق، كشّر عن أسنانه الكبيرة الصفر. جرّني من يدي قائلاً: "هيا بنا. حشرٌ مع الناس عيد.

بقيت صامتاً. أنا رجل يحب الصمت. علمتني الأيام أن أختار من الكلام أفضله، وأن أُبقي شفتيّ مطبقتين حين أقبّل عشيقة عابرة، بائعة يانصيب مشرّدة أو فتاة متجر بائس ألفها بمعطفي وآخذها إلى شقتي فتمكث معي يوماً أو يومين. وقد علمتني الأيام، أيضاً، أن عليّ أن آخذ معي فتاةً إلى سريري. وعندما لاتكون معي عشيقة، ففي الأوّل، أصطحب معي طيف عذراء سحرني عطرها، بينما أنا ل السلالم، أو أرتقيها، في خلال الأمسيات.. وأود أن أشير هنا، أن أماسي النفق لامثيل لها على الإطلاق. خاصةً، أن تلك العذارى، يتخاطفن هنا وهناك، صاعدات أو نازلات، لكنهن منفيات شأنهن شأننا، في هذا النفق.

كان المساء في أوله. فدعاني صاحبي إلى كوب قهوة. جلستُ قبالته، وصرتُ أتأمل الشعيرات البيض في ناصيته وفوديه. مد يده اليسرى في جيب سترته ذات الخطوط المربعة. نثر ماتبقى من حبات الزبيب الأسود على الطاولة الخشبية. نظرتُ من خلاله إلى سيدة جميلة تمر أمام المقهى. الواقع، كان المقهى يحتل حيزاً من الرصيف، وكان على المارة أن يترجلوا عندما يصلون إلى هنا، لأن تخوت الخشب والطاولات والنارجيلات لاتسمح بمرور أحد؛ وعلى السابلة، رجالاً ونساء، أن ينحرفوا في خلال مسيرهم، كي يتفادوا الاصطدام بأحد التخوت أو المناضد أو كسر إحدى النارجيلات. ولأني

كنت شارد الذهن، ساهم النظرات وكزني في كتفي اليمنى وقال لي: "عدّ الحبات، من فضلك. لم أكن في مزاج رائق، طبعاً. علاوة على ذلك، صرت مثل آلاف الناس الذين يسكنون النفق أكره العدّ، خاصة عد الأوراق النقدية. وكان يلزمني، مثلما يلزم آلاف المواطنين في النفق، أن أقضي نصف ساعة في الأقل يومياً في إحصاء الأوراق المالية.. وتوجب علي أن أعدّ يومياً كل تلك المجموعات المتتالية من السلالم، لكنني على أية حال كنت أخطئ في العدّ، فتارة يشاغلني أحد ما، وطوراً تأخذني فكرة أو خاطرة مابعيداً فأغفل عن العدّ. لكن أصدقائي العاطفيون دأبوا على عدّها، وكنت أراهم يجلسون على السلام كالجنود المخذولين في الحرب.. أما الحالمات من خليلاتي فلم يكترثن بعدد السلالم. أليس من الأفضل أن نعرف متى تفتح أبواب النفق، وهل ستفتح الأبواب كلها مرة واحدة. وهل يصح ماتردد مؤخراً من شائعات تفيد بأن الأبواب الخمسة ستظل مغلقة إلى الأبد؟ هذه الأسئلة شغلت بال نساء النفق وفتياته الحالمات. ولكنها، شأن معظم الأسئلة التي تجول في أذهان مواطنينا، ظلت بلا جواب. أسئلة ثقيلة كالرصاص، تجثم على صدور الناس الذين أتعبهم الانتظار والخوف، وصارت أمانيهم أوهاماً لاسبيل إلى تحقيقها.

ولأني كنت لا أحبذ إحصاء حبات الزبيب، ارتشفت قهوتـــي علِى مهل، وقبل أن أسكب في جوفي ماتبقى من الكوب، قلت له: "وفر عليك العدّ. أعرف ما تود قوله.

الحقيقـــة، كنت أفّضل التأمل والاستغراق في التفكير عـــلى مبادلـــته الحديث في مواضيع عادية تلوكها الألسن عشرات المرات يومياً، فأنا رجل صموت، مثلما أسلفت، قـــادني الرعب واليأس إلى الصمت، ومع أنني كنتُ أجد دوماً من تشِاركني ليلتي تحت ضوء الشمع المحترق، إلا أنـــني كنتُ أورث خليلاتي الحزن عندما لا أجد الكلمات الجميـــلة الـــتي أســـتبقيهن بهـــا. ومع أنني كنتُ أتشبث بأذرعهن. وأسفح الدمع تحت و طأة الألم الدامي، إلا أنهن يهجرنـــني ولايـــرجعن إلي ثانيةً. معظمهن يحدوهن أمل كـــبير في سماع كلمات لطيفة تخرج من بين شفتي فيما نحن نجلس متقابلين في شقتي الأرضية الصغيرة عفواً.. اقصد شقتي الواقعة تحت الدرجات الاسمنتية.. الواقع، إن هـــذا الخطأ صار يرتكبه عشرات الأفراد، حيث خيّل لهم أنهم يعيشون على سطح الأرض، وقد ظنوا بمرور الأيام، إن هـــذا هـــو شكل حياتهم، وأن لاسبيل إلى تغييره، ولا جدوى من أن يحلم المرء بحياة ثانيةً خارج النفق. صامتاً ألـــوك لقمـــتي، أو سندويتشـــتي، إن شئت. غالباً أشتري سندويتشـــات الباذنجان من مطعم للأكلات السريعة لايبعد كـــثيراً عن الشقة التي اخترتُ السكن فيها منذ أن وجدت

نفسي مرغماً على الإقامة هنا وماينير دهشتي، أن بعض الناس ظلوا يتزوجون وينجبون الأطفال رغم أن مآسي النفق تزداد يوماً إثر آخر

في اعتقادي، حان الوقت الآن، للحديث عن مطاعم الباذنجان. وقبل كل شيء، أود أن أذكر أن بعض تلك المطاعم حملت أسماء ميثولوجية تارةً وتاريخية تارةً أخرى. أما الفئة الثالثة فقد حملت أسماء شاعرية مثل: القلوب الكسيرة، الحضن البشري، دلتا الغرام. على أن المطاعم كلها كانت تقدّم نوعاً واحداً من الخبز المر، خبز أسمر يلوكه الجميع بوجوه تتقاطع عليها ظلال الشقاء والحرمانات العديدة؛ ظلال كثيفة حفرت اخاديد عميقة في سحناتهم التي باتت كسحنات الأشباح أو الخارجين من القبور

مطاعم الباذنجان ماهي إلا أكشاك صغيرة تشبه إلى حد كبير أكشاك الهواتف العمومية، أو أكشاك الصحف القديمة (لم نعد نطالع صحفاً جديدة، للعلم) مطاعم الباذنجان خالية من المناضد، طبعاً، ثمة ألواح خشبية مثبتة على الجدران، ألواح بعرض ثلاثين سنتيمترا تقريباً، وضعت عليها عبوات الملح المغشوش، وقناني الصابن أو العنبة، فبعض مواطنينا يحبون تناول سندويتشاتهم مع هذه التوابل.

فــي معظم الأحيان، كنت ألتقي فتاةً أو فتاتين، أمام مطعــم الــباذنجان.. وأنـــا لا أعــني هنا مطعماً محدداً، فمطاعم الباذنجان رغم كثرتها تكاد تكون متشابهة، وربما لايختلف أحدها عن الآخر إلا بحجم رغيف الخبز أو نوع التوابل التي تتناولها مع أكلتك المفضلة.

مـــا أن أتفوه بكلمة أو كلمتين مع الفتيات الجائعات، حــتى أرى الأمــل يشرق في وجوههن الضامرة. نحشر أجسادنا بين الزحام، فالمطاعم صغيرة وإنك لاتستطيع أن تتحرك فيها كثيراً، فإما أن تجلس على واحد من الكراسي المــرتفعة أو تــأخذ سندويتشاتك الحادة وتغادر المطعم.. نجــلس دقــائق قلائـــل، نلتهم شرائح الباذنجان المقلية، ونتــبادل الابتســامات الفاتــرة.. وفي خلال تلك الرفقة القصــيرة الأمــد، العابرة، إن شئت، أقرر ما إذا يلزمني اصـــطحاب صديقتي إلى فراشي أم لا. والحق يقال، كنت أؤثــر التــنزه معهن، غالباً، في سوق الثياب المستعملة. فبيــنما نحن نتفرج على الباعة وهم يعرضون بضائعهم عــلى الأرصفة، أكون قد نظمت أفكاري واتخذت قراري غالــباً، أشعر بالضيق والحرج، عندما تحييني فتاتان عند بــاب المطعــم.. بالطبع، هما تتصنعان وضعاً ما بحيث يتوقع الرجل أنهما التقتا به بالمصادفة.. وقد اعترفت لي إحداهــن أنهــا ظــلت تتعقبني منذ خروجي من صالون الحلاقــة، وأنهــا جــاءت راكضةً من الرصيف المقابل،

وتصـــنعت الإعثار، كي أقرفص بجانبها، وأنهضها على قدميها، ومن ثم نبدأ علاقتنا.

نجـلس ثلاثتـنا عـلى (سـتولات) متلاصقة؛ أنا سندويتشـي بـلا عنبة ولا صاص.. أما الفتاتان فتمدان أيديهما إلى القناني الموضوعة على اللوح. أنا لا أكترث بذوقهمـا.. لتأكلا ماتأكلان، مايهمني هو ما آكله أنا.. مع أنهمـا تـأكلان مـا أشتريه لهما. تأكلان الشرائح السود وتـلعقان شفاهما الملطخة بالسمن النباتي. وإذا لم أكن قد قـررت اختيار إحداهما، عندئذ أفضل التسكع معهما في شـارع الغـرام. ولا عجـب، فلولا الغرام لكانت الحياة مستحيلة في النفق. وقد سمعت كثيرين من مواطني النفق، يعلنون صراحةً، أن في وسعهم العيش مع قليل من الخبز والـباذنجان، إنمـا لايسـعهم الحيـاة من غير حب ولا رومـانس. وأنهـم مع إنغلاق مستقبلهم يوماً بعد يوم، أو ربمـا بسببه، ظلوا يعشقون.. مع أن مناسبات العشق هذه تتخلـلها ألوان شتى من اللوعة والحرمان؛ وترافقها دوماً غـلالات الدمع.. حين لاتجد ما تأكله مع عشيقتك فجراً، نـاهيك عن قول الكلام الرقيق لها.. تجلس حبيبتك وتدير لك ظهرها، تطلب منك أن تزرر فستانها أو تحكم إغلاق مشابك حمالتي صدرها، ثم تودعها وداع الدمع الكبير.

الواقع، يطيب لي الآن أن أتحدث بكلمات قلائل عن شارع الغرام. فأنا أزعم أنه يندر أن توجد مدينة في العالم بلا شارع غرام. وأنه إذا كانت ثمة شوارع في الجنة أو الجحيم، فلابد أن يكون ثمة شارع في كل منهما يحمل هذا الاسم. لأننا بسبب الحب ندخل الجنة تارة، والجحيم طوراً. وإذا كانت هنالك آلهة للحب والجمال، فهنالك أيضاً شياطين للحب والرغبة أورثتنا الهمّ والعذاب واللوعة. وعلى أية حال، فشارع الغرام في نفقنا لاتقوم على جانبيه الأشجار، كما أنه لا وجود للظلال الكثيفة فيه.. هو شارع هادئ، مسفلت، تقصده بائعات الزهور، وتمر به صباح مساء الدراجات الهوائية.. دراجات يمتطيها عشاق مسرورون، يشترون الزهور، وحينما يصلون موقعاً معيناً، يسندون دراجاتهم على جدار أو يطرحونها أرضاً، ثم يقتعدون مصطبة حجرية.. كل عاشق يداعب ثغر حبيبته بغصن الورد. شكراً لبلدية النفق التي وفرت لنا مصاطب للعشق والتأمل. وإذا توجب علي أن أقول الحقيقة، فإن شارع الغرام كان الملاذ الوحيد لشبان النفق. وقد رأيتهم يتوافدون إلى هنالك اثنين اثنين، شبان كانوا فيما مضى ذوي مهن عديدة أو طلبة جامعيين؛ بعضهم عملوا في المسرح، لكنهم الآن باتوا بلا عمل؛ هجروا أقنعة الكوميديا والتراجيديا، يتأبطون مسرحيات بيكيت ويونسكو ومحيي الدين زنكنة.. وإذا

كـــانت طقـــوس الإخصاب والزواج والولادة والختان قد شـــحت في النفق، فإن طقسٍ القراءة هو الوحيد الذي بقي ملتصـــقاً بـــأرواحهم. وكنتُ أسمع بعضهم يردد عبارات معـــروفة مـــن مســـرحيات شهيرة، وأدركت صحة قول أحدهـــم بـــأن الممثلين يحيون في المسرح ويعيشون في الحيـــاة.. كما أنني رأيتُ أحدهم يلوّح بمنديل ويركع على ركبـــتيه ويهز كتفي حبيبته بقسوةٍ مصحوبة بالدموع. ما أكـــثر ماجلستُ هناك مساءً، أفكرُ مع خليلة حزينة تحت ضـــوء المصـــابيح الكابيـــة في مغزى حياتنا، أو أداعب خصلة شعر شاردة من تسريحة ملاك جميل إنما ضائع، مـــلاك تقاســـم معي ساعةً أو ساعتين من مساء خريفي رطب.. ملاك يلخص الشفافية كلها، والعذوبة كلها.

هـــا أنذا أنجرف للحديث عن ملاكي، وزوجتي. ولا بـــأس الآن أن أحكي قصتي معها. اسمها ميلاد. شابة في الثامـــنة والعشـــرين. طالبة جامعية سابقة. كانت تدرس الإسبانية قبل تركها الدراسة. تعرّفت إليها من خلال لوح إعلانـــات للـــتعارف. الفـــتيات كن يعلّقن رسائل وردية مكـــتوبة بخط جميل. ميلاد كتبت رسالتها بالخط الكوفي "شابة في ربيعها الثاني والعشرين. تودّ التعرف إلى رجل ذكـــي ومـــثقف. شـــريطة أن يكـــون دون الأربعين وله وظيفة".

ألـــواح الإعلانات تلك كانت وسائل فريدة للتعارف، والحق فقد عوّضت بعض الشيء عن النقص الفاضح في طـــرق الـــتعارف بين الجنسين، بعد أن توقفت الصحف المحلية عن الصدور بسبب شح الورق.

تأخرت عن موعدي معها. كانت تنتظرني في مقهى على رصيف جميل. ذلك المقهى كان ينيره مصباح واحد وضــــع فوق المنضدة. شيوخ وشبان يتناقشون بأصوات منخفضـــة فـــي قضـــايا مختلفة؛ سياسية وغير سياسية. عرفـــتها فـــوراً. طويلة ورشيقة. فستان أخضر، إسباني الطراز. "خضراء، خضراء، أحبك خضراء".

كـــانت جالسة في زاوية المقهى. تطالع ديوان شعر بالإســـبانية، عـــلى ما أذكر. عرفتني. إحتسينا كوبين من الشاي المر. ودخنا سيجارتين. ثم خرجنا للتنزه.

حـــدث ذلك في يوم إجازتها الأسبوعية. يوم سبت، على الأرجح، آنذاك كانت تعمل نادلة في مطعم للأكلات الشعبية. تلبي طلبات الزبائن بوجه باسم. تنحني بأدب جم وتســـجل في ورقتها الصغيرة مايطلبه الزبون.. والحق، فـــإن نجاح ذلك المطعم يرجع إلى ميلاد ذاتها؛ خاصةً إذا عرفـــنا أنهـــا الـــنادلة الوحيدة هناك، يشاركها ثلاثة ندل نظيفون، يقفون كالحرسِ، تتدلى على أذرعهم قطع قماش ويمســـكون بأيديهم عدداً من الملاعق والسكاكين الفضية.

عبارات إسبانية جميلة كانت تفلت من بين شفتي ميلاد المقوستين على غير إرادة منها.. والواقع، كانت ميلاد تطالع كتباً بالإسبانية في أوقات فراغها، سواء في مقر عملها أو في غرفتها الوحيدة في نزل النساء. المطعم يخلو عادة من الزبائن في ساعات العصر. تنزوي ميلاد في كرسي خيزران. تقرأ في كتابها وتدخن سيجارتها الأثيرة. ميلاد لم تكن تدخن كثيراً، حين تعرفت إليها. كما أنها لم تكن مغرورة أو كثيرة المطالب على العكس من معظم الجميلات اللاتي تعرفت إليهن. والحق، ميلاد كانت شابة واقعية، عاشت مصائب كثيرة، وأكسبتها الحياة جرأةً فريدة.. ميلاد كانت تسمع عبارات الشكر والامتنان من الزبائن، لا بل إن بعضهم كان يترك لها بقشيشاً في صحن الخزف الصيني. وقد حكت لي وأنا أنطلق بها على دراجتي الهوائية إلى شارع الغرام أن أحدهم التهم عدة أطباق من الطعام لسبب وحيد ألا وهو أنه كان متيماً بها، وكان يريد البقاء في المطعم أطول فترة ممكنة.. ميلاد بالطبع أذهلها هذا الزبون الغريب، وأنها جعلت تكدس صحون الطعام على مائدته.. لم يكن الزبون شرهاً، إنما يبدو أنه قرر أن ينتحر، ولأنه لم يكن يتحمل تلك الكميات الهائلة من الأغذية فقد أُصيب بمغص معدي فهرع إليه واحد من أطباء الأرصفة، وساقه محلولاً أبيض سيء الطعم، فقذف مابجوفه من طعام. وبعد استراحة

قصيرة، اعتذر عما حصل له. دفع ثمن الأطباق دون أن ينسى بقشيش ميلاد. ذلك الزبون الغريب الأطوار لم يعدْ إلى المطعم ثانيةً؛ لكنه على الأرجح ظل يحلم بها أعواماً طويلة. كان هو رجلاً دمث الأخلاق، خجولاً، وآثر على أن يعيش بعيداً عن نادلة المطعم التي ذهبتْ بعقله.

أنا وميلاد استأجرنا دراجة هوائية من تلك الدراجات التي يستأجرها العشاق، قصدنا شارع الغرام.. ولما ضجرنا الجلوس على المصطبة، استلقينا على الرمل البارد جنب الحديقة اليابانية التي أبدعتها مخيلة خصبة برغم أن لامبالاة قاسية سادت جميع مواطني النفق نحو الأعمال الفنية. وأن أحداً لم يعد يكترث بما تتمتع به لوحة فنية أو نصب تذكاري من قيمة جمالية ناهيك عن صفة الخلود التي يمنحها الفنانون لكل أثر أصيل.

ميلاد عملت موديلاً لرسام واقعي في سنتها الجامعية الأولى.. كانت تجلس قبالته على كرسي مرتفع ثلاث أو أربع ساعات يومياً.. لكنها مالبثتْ أن ألغت العقد معه بعد شهور خمسة.. الفنان الواقعي صار يطلب منها أن تعرض مفاتنها، "الجمهور لم يعدْ يفضل اللوحات المحتشمة". هكذا قال لها. كان يطلب منها مثلاً أن تكشف شيئاً من ساقها أو مفترق نهديها.. ميلاد تخاصمت مع

الفنان، مزقت لوحته القماشية، رمت أرضاً علبتين من علب أصباغه، وخرجت من مرسمه.

مرت هي بظروف مادية عسيرة في خلال السنتين الأوليتين في الجامعة.. فتاة لطالما، عاشت عشر سنوات من عمرها في دارٍ للأيتام؛ وعندما دخلت الجامعة شرعت تواجه واقعها الخشن. شابة طموحة، ذكية، قرأت كل كتب مكتبة دار الأيتام، حفظت أسماء كتاب عراقيين وعرب وعالميين. تخيلت البيئة البغدادية في خلال أحداث "النخلة والجيران وذرفت الدمع حين طالعت بشغف "كوابيس بيروت" صفحات الرواية تبللت بدموع ميلاد، فتاة دار الأيتام، التي صارت فيما بعد حبيبتي وزوجتي. كانت تستقبلني خير استقبال عندما أعود من عملي، وتموسق عبارتها الإسبانية الجميلة: "ياروح قلبي!".. لم تستطعْ هي التخلي عن عملها في المطعم، خاصةً إذا عرفنا الاحتياجات المادية لزوجين شابين يعيشان في ظل ارتفاع أسعار المواد الأساسية، زوجين محكوم عليهما بأن يقضيا ماتبقى من عمرهما في نفق أُغلقت أبوابه الخمسة، وصارت الأحذية والملابس والكتب تتنقل من مواطن إلى مواطن. اليوم تشتري أنت قميصاً بثمن كتاب قديم، أما الآخر فيشتري عدة كيلوغرامات من البرغل بثمن القميص.. وهكذا دواليك.. إن عليك أن تعد كل تلك الأوراق النقدية الكثيرة، في خلال عمليات البيع

والشراء.. ويتوجب عليك أن تضيف، غالباً، عدة أوراق نقدية، على ثمن البضاعة المباعة.. أما إذا لم يكن بحوزتك شيء من المال، فما عليك سوى الذهاب إلى سوق المقايضات.. إذاً، سادتي، في نفقنا أسواق عديدة: سوق الجمعة، وسوق الثياب المستعملة، وسوق المشاهير.. أنا وميلاد ذهبنا ذات يوم إلى سوق المشاهير، أنا اشتريتُ حذاءً لـ إيف مونتان أما ميلاد فقد اشترتْ لوحة فنية صغيرة من مقتنيات أم كلثوم. كان وضعنا المادي جيداً، تقريباً، في خلال تلك الفترة، وصرنا نبذر نقودنا بعض الشيء.. لكننا مالبثنا أن بعنا كل ما اقتنيناه في خلال تلك الشهور القلائل التي تدنت فيها الأسعار. فالنفق الذي نسكنه من سنوات عدة يشهد دوماً اضطراباً حاداً في الأسعار، لايمكننا أن نصفه كونه ارتفاعاً واقعياً أو طبيعياً مقارنةً بما يجري في العالم.. وإذا ما استخدمتُ الآن مصطلح ميلاد حين نعتته بكونه "ارتفاعاً تجريدياً"، فربما أكون بذلك قد اقتربت من الحقيقة فعلاً. كما شهد النفق أحداث كثيرة، وأمراض غريبة لم نشهدها قبلاً، وصرنا نرى مرضى يئنون في المنعطفات، ومجانين قذرين يجوبون الشوارع، يضحكون محمري الوجوه، ضحكات خرساء.. كما صرنا نرى شحاذين على درجات السلالم. كانوا فيما مضى شخصيات محترمة، شغلتْ في سابق الأيام مواقع وظيفية في مؤسسات ومكاتب ساهمت

في ازدهار البلاد. عشرات من الشحاذين يموتون على الأرصفة، والسلالم، وفي الشوارع.. لابل حتى في شارع الغرام.. يبدو أن ذلك الشحاذ قرر أن يموت في هذا المكان الجميل، فدفع كل مايملكه لصاحب الدراجات. استأجر دراجة، لم تكنْ تجلس وراءه عشيقة جميلة ولاقبيحة؛ حدبته هي التي جلست وراءه.. إلى شارع الغرام جاء الشحاذ. التفت إليه، وكذلك فعلت ميلاد.. الواقع، ذلك المتسوّل الأحدب خطف انتباه العاشقين جميعاً. سمعتُ أحدهم يقول غاضباً: "اسمعوا ياناس، حتى شارع الغرام عمّه الخراب" الجميع جعدوا أنوفهم، وأشاحوا وجوههم عنه.. لكن المسكين مالبث أن هوى من على دراجته ميتاً.. الدراجة الهوائية اضطجعت فوق المسكين الأحدب على الرمل البارد.

وأن أغرب حادثة جرت في النفق، في أثناء السنة المنصرمة، في الأقل.. هي أن طبيباً من أطباء الأرصفة، ممن يداوون المواطنين بأعشابهم الطبية، كان في طريقه لزيارة مريض قيل أنه مصاب بمغص كلوي. أعطوه العنوان مكتوباً بخربشة أشبه ماتكون بخربشات تلميذ ضعيف الكتابة.. الوقت ليل، النفق مظلم، أصحاب السلع والحوانيت أطفؤوا مصابيحهم، الشحاذون أطفؤوا ماتبقى من شموعهم وانزووا في جحورهم.. الطبيب اضطر لاستعمال بطاريته الكهربائية للوصول إلى مريضه، شيخ

في الخمسين يعاني من يومين ألماً فاجعاً.. وماكاد الطبيب المسكين أن ينعطف في شارع فرعي صغير حتى هجم عليه كلب شرس ومزقه شر تمزيق. جثة الطبيب أمست وليمة للكلاب السائبة في النفق.. بطارية الطبيب سرقها عابر سبيل، أما المريض فظل يعاني من الوجع اللعين طوال تلك الساعات القاتلة، دون أن يعلم أن الطبيب مات في الطريق إليه.

أنا وميلاد أمضينا أجمل ساعتين من عمرنا، في ذلك اليوم الخريفي الرطيب.

أنا وميلاد تقاسمنا سريراً وحيداً قبل أن نقرر الزواج. ومثلما أسلفتُ، لم تكن ميلاد كثيرة المطالب، لذا اشترينا أثاثاً قليلاً، وحولنا شقتنا الصغيرة إلى جنينة متواضعة ربما يحسدنا عليها كثير من أترابنا، أو أبناء جيلنا.

أنا وميلاد عشنا سنتنا الأولى في وئام ومحبة نادرين. مع أنني كنتُ أغار عليها من عيون الزبائن الوقحة، وتلميحاتهم التي لاتخلو من المكر. الحق الحق كنتُ أخاف عليها أكثر من خوفي على مستقبلي أنا الذي بات معروفاً لديّ. موظف بسيط في بلدية النفق، عملي يقتصر على قياس مساحة المحلات العامة وتحرير إجازة

ممارسة العمل، بعد أن يقوم صاحب المحل بدفع الرسوم التي تنص عليها القوانين السارية المفعول.

ميلاد كانت تطمح بطفل جميل، تتفرغ لرعايته وتربيته وتترك ذلك المطعم الذي عملت فيه خمس سنوات أو ست.

ولأن الله لم يرزقها بطفل، داهمتها نوبات قلق وحزن وكآبة.. غالباً، تكون النوبة في أشد حالاتها، بحيث تنهض من كرسيها الخيزران، وتمزق الجريدة القديمة المبسوطة بين يديّ. ميلاد تكره عادتي تلك.. هي تريدني أن أبعد عن وجهي الصحيفة الصفراء وأصغي إليها.. كنتُ أسمع، بطبيعة الحال، كل كلمة تقولها ميلاد.. لابل حتى الكلمات التي لاتقولها ولأني عاشرتُ نسوةً كثيرات فقد كنتُ أقرأ مافي عيونهن، وأتكهن بما يجول في خواطرهن.. ميلاد، واحدة من أعذب النساء اللاتي عشت معهن في خلال العقد الأخير من حياتي.. أحياناً، تعمد ميلاد إلى مشاكستي، فتثقب صحيفتي بنار سيجارتها المشتعلة، ثم تصيح بي: "دع الجريدة الآن، وإصغِ إلي.." أنا أكتفي بالصمت، أجاريها، ابتسم بسمةً عريضة، أقول مع نفسي: أي جميلة في العالم ترضى بزوجٍ صموت مثلي.. ألم تهجرني خليلاتي بسبب ضعف فصاحتي، واختناق الكلمات في حلقي.. ألستُ من حطم أفئدة العذارى بكلماته

القلائـــل، ألست من سُفحت الدموع على ملاءات سريره، دموع العذارى اللواتي يثوي في أفئدتهن حب مخلص.

الواقـــع بعض مواطنينا نفد صبرهم، ودفعهم حزنهم إلى أعمـــال يائســـة. في خلال يوم شتائي بارد، شاهدت مئات الأشخاص، صبيان تركوا مدارسهم وعملوا ماسحي أحذيـــة على درجات السلالم والأرصفة المغبرة، بائعات آيـــس كريم متبرجات تخالهن عارضات أزياء أو نجمات ســينما أوفتيات إعلان، عاطلين عن العمل يستشعر فيهم المـــرء الرغـــبة في الحياة، مئات الأفراد ظلوا يقرعون الأبواب بقوة؛ حمى ضرب الأبواب هيمنت على الجميع.. أحدهـــم ضرب باب النفق الكونكريتي برأسه خلال نوبة هســتيريا. الــدم تدفــق من رأسه مثلما يتدفق من نزف وريدي.

في يوم خريفي آخر، بعد مرور عامين تقريباً، وقع حـــادث رهيب حطم صفاء حياتي. أنا وميلاد تسكعنا قبل وقـــوع الحادث في سوق الجمعة. اشترت هي قلم أحمر شفاه بلون الشمندر وفستاناً أخضر مائل إلى الاصفرار.. مازحتها قائلاً: "فستانك هذا يذكرني بأوراق الخس.. اللون نفســه والثـنيات ذاتهـــا". كمـــا تبضـــعت هي قرطين صفراوين..

كان يوماً هادئاً إنما حزيناً.. غادرنا شقتنا قبل الوقت المعـتاد، أنـا إلى بلدية النفق، وهي إلى مطعم الأكلات الشعبية.. أنا امتطيت دراجة هوائية، وهي قطعت المسافة إلى محل عملها، سيراً على الأقدام.. التفتت إليّ، وضعت أصـابعها الطويلة البيضاء على شفتيها وقالت بالإسبانية (Hasta luego).. وقـبل أن أضـع قدمي اليسرى على دوّاسـة الدراجـة ألقيـت نظـرة عابرة على صورتها الجانـبية.. فـي تـلك اللحظة هبت نسمة باردة وحركت خصـلة شعر سوداء منسدلة على أذنها اليمنى.. يومذاك كـانت هي بفستان الخس الجميل والقرطين الصفراوين، أمـا شـفتاها فكانتا بلون الشمندر (على فكرة كانت هي مولعة بعصير الشمندر).

يـوم عمل اعتيادي.. زبائن قليلون في المطعم. من أمـام واجهـة المطعم مرّ صبيان في العاشرة أو الثانية عشـرة، يحمـلان صناديق تلميّع الأحذية. كما مرت من هناك عربة آيس كريم تدفعها عجوز هرمة رثة الملابس وفتاة في ميعة الصبا تلبس سروالاً أسود اللون ضيقاً من الأسـفل. بعدها بعشر دقائق تقريباً مر شحاذ قذر، ثم عاد ودخـل المطعـم. الشـحاذ كان ظمآناً فسمح له صاحب المطعم الجالس خلف طاولته الصغيرة بالدخول.. الشحاذ جرع كوبين من الماء مع أن الطقس لم يكن حاراً، فالوقت خـريف، ودرجـة الحرارة لاتزيد على الثلاثين مئوي..

وبعــد أن مسح شفتيه وشاربيه الكثين أزاح كرسياً وجلس حذرا خلف إحدى المناضد.. الواقع، جلس هو إلى إحدى الموائــد الــتي كــانت من مسؤولية ميلاد.. لم تشأ هي الحديث معه، لكنها طلبت من زميلٍ لها، نادل نشيط ولبق، أن يطــلب مــنه الخروج فمظهره المزري يضر بسمعة المطعم، وإذا ما كان هو جائعاً فعليه أن يأتي بطبق فارغ كــي يزوّد بالغذاء. النادل النشيط ربّت على كتفه ثم قاده إلى الخــارج.. الشحاذ أذعن للأمر، مع أنه تمتم بكلمات تنم عن إحساسه بالإهانة والذل.

ميــلاد تغادر المطعم في الثالثة بعد الظهر، ثم تعودٍ إلى المطعــم وقــت العشــاء، سبع ساعات عمل صباحاً وثلاث ساعات مساءً. عمل مرهق، ستقولون حتماً.. نعم، ميــلاد أنهكهــا الإعياء بحيث أنها كانت تحس بالضجر والتبرم؛ لكن مامن خيار آخر في النفق المغلق.

خــرجت ميــلاد متعبة من مطعمها كعادتها في كل يــوم، مخفضة الرأس، تحدّق في آجرات الرصيف التي تمــر فوقهــا يومياً أمواج بشرية ضائعة، حزينة إنما لا تفارقهــا تلك الرغبة الغريزية في البقاء والعيش والتحمل بــرغم كــل المعاناة التي تكابدها يومياً. وفي زاوية أحد الشــوارع، اصــطدمت بالشــحاذ الــذي جرع الماء في المطعــم. بانت على ملامحها سيماء الاشمئزاز، وقبل أن

تستطيع هي التنحي عنه، غرز سكينته الصدئة في قلبها.. تهاوت ميلاد أرضاً، وسال دمها على الرصيف، وبينما كنت أتأهب لمغادرة مبنى البلدية كان "قلبها المطعون يتأهب للموت".

حكيت لصديق بدراسة كل ماجرى لي في السنوات الأخيرة. استرجعنا كل الأفعال الصبيانية التي قمنا بها خلال سنوات القسم الداخلي. قرأنا مقاطع ظلت ملتصقة بذاكرتنا من "سيرة التفاحات الأربع" تذكرنا معارض الفنون التشكيلية، وقناني البيرة المضببة في الحانات الخافتة الأضواء.

"هوّن عليك.. حشر مع الناس عيد".

كلام صديقي لم ينفعني فتيلاً. لا عزاء لرجل فجع بموت ملاكه. مواساته لم تستطعْ أن تمحو ذكرى أثيرة واحدة من ذكرياتي مع ميلاد.

إنـي، الآن، جالس في شقتي، وحيداً، أكتب قصتي هذه على ضوء شمعة اشترتها ميلاد لعيد زواجنا الثاني.. اليوم يصادف الذكرى السابعة لرحيلها.. سبعة أيام، أو سبعة أسابيع، أو أشهر أو سنين.. هي ذي أشياء ميلاد من حولي. منشفة الحمام البرتقالية، صنارتا الحياكة رماديتا اللون، ديوان "أنطونيو ماتشادو حاجيات ميلاد ماتزال في مكانها.. لم أجرؤ على مسها.. بعد قليل ستأتي هي..

المنشــفة ماتزال رطبة. الصنارتان متصالبتان، إحداهما مغــروزة في الكم الصوفي.. ريشة طائر وسط الديوان.. بعــد رحيل ميلاد لم تدخل شقتي شابة أخرى. ميلاد آخر النساء في حياتي.. وهي، حتماً، أول النساء أيضاً.

ولأنــي أريد أن أحتفي بغيابِها الفاجع، فقد اشتريت زجاجة عصير الشمندر.. و ضعتُ الزجاجة على الطاولة الــتي أكــتب عليها الآن.. ثمِ أتيتُ بكأسين من الزجاج. ســكبتُ كأساً لي وأخرىٍ لها.. ميلاد تجلس قبالتي الآن، تقــرأ بالإســبانية قصيدةً لــ بابلو نيرودا. صوتها ينبعث حزيناً:

"مانفع الأشعار إذا لم تكن للندى

مانفع الأشعار إن لم تكن لهذه الليلة

التي يخترقنا فيها خنجر مر

لهذا النهار، لهذا الغسق

لهذه الزاوية المحطمة

حيث قلب الإنسان المطعون يتأهب للموت؟"

أرفــع كــأس الشمندر إلى فمي، وقبل أن أقلبه في جوفــي، تنســكب دمعتان كبيرتان في كأسي (هل جرب أحدكــم أن يشــرب دموعــه، هل جرب أحدكم أن يلعق دمه)..

ميـــلاد تجــلس قبالتي الآن، شفتاها بلون الشمندر، فســتانها الأخضــر اتسخ قليلاً.. ميلاد تنفض الغبار عن فستانها، لم يكن هنالك أثر للدم القاني على ورق الخس.

الدنيــا ليــل، الغرفة شبه معتمة. أنا وميلاد، الآن، نحتســي الشــمندر.. كلانا صامتان.. ميلاد هي الأخرى أمســت امرأةً صموتاً.. الصمت أمسى صفتنا المشتركة، هوايتــنا المشتركة. أنا وميلاد صرنا لعبة الصمت.. ومع أنني مارست ألعاباً كثيرة في حياتي، إلا أن لعبة الصمت هــي اللعــبة الوحيدة التي تناسبني الآن.. لعبة الصمت، أمارسها يومياً، كالصلاة، كالنيرفانا، كاليوجا.. كلما سكن الــليل خلف الشبابيك الموصدة.. ففي الليل تنشط روحي، وتهيج في أعماق قلبي المدمى الذكريات.

الكويت 1998

الفهرس



صدر للمؤلف

ترجمة لرواية حفلة القنبلة"، للكاتب البريطاني غراهام غرين، عن دار الشؤون الثقافية العامة- عام 1989

ترجمة لرواية طبل من صفيح" للكاتب الألماني غونترغراس، دار الشؤون الثقافية العامة - عام 2000.

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

الهولندي الطائر: قصص قصيرة / علي عبد الأمير صالح- [دمشق] اتحاد الكتاب العرب، 2000 – 176ص؛ 25سم.

1- 813.01 ص ا ل هـ

2- 813.009563 ص ا ل هـ

3- العنوان 4- صالح

ع- 2000/8/1479- مكتبة الأسد

□□

هذا الكتاب

مجموعة قصصية تنشد قصصها حياة جميلة، مؤنسة لليلة الوحشة والقلق وتنفي حياة الحرب، والقتل والتدمير وتفاخر بالدفاع عن الوطن والأرض والتراث.

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق

ثمن النسخة ١٧٥ ل.س في القطر
٢٢٥ ل.س في أقطار الوطن العربي